الإعجاز البلاغى

فى

ســـورةالقمـــر

الدكتورة

عزيزة عبد الفتاح الصيفى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر - فرع البنات بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدما محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن تعلق القلوب المؤمنة بكتاب الله أمر فطرى مطبوع فيها ، وقراءة القرآن تشرح القلوب وتثلج الصدور ، وحفظ آياته ، وذكرها باستمرار يسعد الأفئدة وينير العقول ، فالقرآن دليل المؤمن وهاديه ، ومعرفة معانيه واستيضاح أسراره وخوابيه فضيلة كبرى لا يحظى بها إلا من هداه قلبه إلى متابعة الدرس والتعلم ، والرغبة فى معرفة أسباب إعجازه ، وبالرغم من تعدد الدراسات التى تناولت سور القرآن بالتحليل والتفسير والتوضيح ، فإن كتاب الله سبحانه وتعالى يظل بحراً من الأسرار يغترف منه المؤمنون إلى يوم الدين ، ويظل مجالاً واسعاً يسع الفضاء الذى لا يُعرف منتهاه .. إنه الجنة الوارفة الظلال يرتاح عندها كل سائل عن سعادة الروح وسمو العقل وارتقاء الفكر . واهتداء النفس لعمل هذه الدراسة عن سورة القمر نعمة منه وفضل عظيم ، فقد كنت دائماً أفكر فى تلك العلاقة العجيبة بين إخبار الله سبحانه وتعالى نبيه عن اقتراب الساعة بعد انشقاق القمر ، وذكره بعد ذلك لقصص الأمم السابقة ، ووعده فى آخر السورة للمؤمنين بجنات ونهر ، وحياة أبدية فى النعيم .

وقد يتوقف المرء عجباً لهذه السورة المعجزة التى تهز الكيان هزاً، وتجعل الإنسان بتكرار ذكرها دائم التيقظ ، لعمل ما أمر الله ، والنهى عما نهى ، إنها الناقوس يدق فى آذان من كفر ، ومن أثم ، ومن ارتكب

المعاصى ، إن فيها الوعيد لهؤلاء بنار جهنم ، والوعد للمتقــين بنعــيم الجنة .

جاءت الدراسة فى مقدمة ، وتمهيد ، وستة مباحث وخاتمة ، فقد تم تقسيم السورة إلى ست مباحث ، وحاولت من خلال التحليل البلاغى تحرى الدقة فى إثبات المصادر والمراجع ، من كتب التفاسير وكتــب البلاغة للاستيضاح والاستفادة منها فى التحليل البلاغى لكل حرف ولفظ وجملة فى سورة القمر ولم تكن بالعمل السهل فإن إحــصاء المعــانى ومراجعتها فى مصادرها ، وتحليل الفنون البلاغية المتنوعة ليس بالعمل الهين ، كما لم يفت البحث إثبات القاعــدة البلاغيــة فـــى الهــامش ، والرجوع إلى المعجم للتعرف على معانى بعض الألفاظ فلــم تكتــف الدراسة بالمعنى المثبت فى التفاسير ، وقد كان الرجوع إلـــى المعجــم مفيداً للوقوف على أكثر من معنى للفظ الواحــد، بمــا يفيــد التحليــل البلاغى.

وإذا كانت الدراسة قد تمت على هذا النحو فذلك بتوفيق من الله ، وإذا فات الدراسة شئ ، فذلك لأن القرآن أسراره لا تنفد ، ومعانيه فى حاجة دائمة للبحث والتأمل ، فرجاء إلى الله أن تُحتــسب مثــل هــذه الأعمال عنده ؛ إنه نعم المولى ونعم النصير .

د. عزيزة عبد الفتاح الصيفى

تمهيد

سورة القمر ، تتحدث آياتها عن اقتراب يوم القيامة ، وجاء من علامات اقترابه انشقاق القمر .

وهى سورة مكية، تبلغ آياتها خمساً وخمسين آية قيل " كلها مكية فى قول الجمهور ، وقيل : هى مكية إلا ثلاث آيات(٤٤ - ٤٦) " (١) .

وانشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ ومعجزاته النيرة ، وقد ظهر من يقولون بغير ذلك ، لكن اتفق الجمهور على " أن الانشقاق حدث فى أيام الرسول ﷺ " (٢) .

والسورة تتحدث عن اقتراب يوم القيامة ، وفيها خطاب تحذيرى لأهل مكة الذين تمادوا فى عنادهم وكفرهم بأن نار جهنم مصيرهم ، وتحكى السورة لهم أمثلة من الأمم البائدة التى سبقتهم فى تكذيب الرسل وكيف أن الله سبحانه وتعالى ، ألحق بهم العذاب فى الدنيا قبل عذاب الآخرة فأبادهم عن آخرهم فأوردت السورة قصة قوم عاد وثمود ونوح ولوط عليهم السلام وقوم فرعون وتكذيبهم لموسى وهارون عليهما السلام .

وأول السورة له مناسبة مع آخر السورة التى سبقتها وهى (النجم) فى قوله : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ (سورة النجم : ٥٧ - ٦٢) .

---

(١) انظر فتح القدير للشوكانى ١٢٠/٥ ، دار المعرفة ، يروت ، لبنان .

(٢) الكشاف للزمخشرى ٤٣٠/٤ ، دار الكتاب العربى ، وفتح القدير للشوكانى ١٢٠/٥ .

ثم يتبع ذلك فى سورة القمر ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ .

" ولا يخفى ما فى هاتين السورتين من حسن التناسق للتناسب فى التسمية لما بين النجم والقمر من الملابسة ، وأيضاً أن هذه بعد تلك فى أنها تفصيل لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ ... ﴾ إلـــى قولـــه تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ (سورة النجم : ٥٠ – ٥٣) [١] .

ويقال إنها نزلت بعد سورة الطارق، وتسمى فى التوراة (اقتربت) كما سميت " المبيضة ، تبيض وجه صاحبها يوم تبيض الوجوه " [٢] .

وعن فضل من يقرؤها قال رسول الله ﷺ : " من قرأ (اقتربت الساعة) فى كل ليلة بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر " . وقيل : إن النبى ﷺ كان يقرأ (قاف واقتربت) فى الأضحى والفطر" [٣].

---

(١) مجمع البيان للطبرسى ٦٥/٢٦ ، مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان .
(٢) فتح القدير للشوكانى ١١٩/٥ .
(٣) المرجع السابق ١١٩/٥ .

التحليل البلاغى فى سورة القمر

المبحث الأول

مقدمة السورة

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (القمر: ١–٥).

قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ .

كان انشقاق القمر ورؤية الناس له من علامات اقتراب يوم القيامة، كما أبلغ الله تعالى رسوله الكريم فى هذه السورة ، والآيات الأولى تتحدث عن ذلك ، ومع ذلك كان هناك المعاندون والمعرضون عن الإيمان بالله وباليوم الآخر ، واستمروا فى تكذيبهم للرسول ﷺ ، واتهموه مرة بأنه ساحر وأخرى بأنه شاعر ، ولقد جاءهم ربهم بأخبار الأمم البائدة علهم يتعظون ويؤمنون ، لكنهم ظلوا على كفرهم وعنادهم.

وانشقاق القمر من الحقائق التى ذكرها القرآن الكريم " وهو الحجة البالغة والمعجزة الخالدة للأسلوب العربى فى فصاحته وبلاغته قد زخر بالحقائق اللفظية وعبر بها فى كثير من الآيات بل إن أكثر آى القرآن قد أتى على الحقيقة " [١] .

بدأت السورة بفعل ماض ، قال (اقتربت) تحقيقاً لوقوعها وأن ذلك مما لاشك فى حدوثه، ثم عطفت جملة (انشق القمر) على (اقتربت)، فانشقاق القمر يعنى : انفصال بعضه عن بعض ليصبح فلقتين ، وقد ثبت فى الكتاب والسنة أن ذلك حدث فى أيام النبى ﷺ لا فى يوم القيامة، " وفى الكلام تقديم وتأخير أى انشق القمر واقتربت الساعة " [٢].

---

(١) البرهان للزركشى ٢/٢٥٥ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، عيسى الحلبى .

(٢) فتح القدير للشوكانى ٥/١٢٠ ، دار إحياء التراث العربى بيروت ، وانظر لباب التأويل فى معانى التنزيل للخازن ٦/٢٧٢ ، ط الحلبى .

والقرب فى الآية ليس معناه القرب بمفهوم البشر وحسابهم للوقت، وإنما بالمفهوم الإلهى للوقت ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وصعد به إلى السماء ثــم عاد به إلى بيته فى أرض الجزيرة العربية ، كل ذلك بحــساب البــشر يحتاج إلى أدهر زمنية ليتم ، لذلك فإن قوله (اقتربت) لا يعنى القرب السريع حسب تقديرنا نحن للزمن، وإنما قرب بتقدير الله سبحانه للزمن.

وجاء الوصل[١] بالواو : لأن الفعلين ماضيان، فإن جملة (انشق معطوفة على جملة (اقتربت) لأنه قُصِّد إشراكها فى الإعراب وهو ما يسمى التوسط بين الكمالين للاتفاق فى الخبرية وزمن الفعل وقد يكون التعبير بالماضى فى (اقتربت) كناية عما سوف يحدث فى المستقبل .

ويذكر الألوسى " أن المراد باقتراب الساعة ، القــرب الزمنــى الشديد ، وكل آت قريب والباقى بالنسبة للماضى شئ يسير " [٢] .

وتعريفها (بأل) دل على أنها ساعة معلومة محـــددة لفنـــاء العالم والبعث من جـــديد . والمعنى : اقتــرب موعـــد القيـــامة ، والبعث ، ولأن البعث سوف يحدث فى ساعة معلومة فقد ذكر (ساعة) للدلالة عليه .

قال تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ .

---

(١) يجب الوصل إذا كانت الجملة الأولى لها محل من الإعراب وأريد إعطاء هذا المحل الإعرابى للجملة الثانية . الإيضاح للخطيب القزوينى تحقيق د. عبد الحميد هنداوى ص١٤٩ ، مؤسسة المختار ، القاهرة .

(٢) انظر روح المعانى للألوسى ٢٧/٧٧ ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ط ٤ .

والواو: استئنافية[1] ، و(إن يروا آية) يعنى : كلما رأوا آية فعبر بالفعل المضارع لإفادة الاستمرارية والتتابع " فالاستمرار بمعنى الاطراد يقال اطرد الشئ تبع بعضه بعضاً " [2] . فالكفار أعماهم كفرهم عن الحق، كلما رأوا معجزة من الرسول ﷺ يتهمونه بالسحر بل ويعتبرونه مستمراً فى سحره . وجاء (سحر) نكرة ، والمعنى (هذا سحر) أو (إنه سحر) ، والتنكير لإرادة عدم الحصر وانخفاض الشأن [3] .

وقوله : (يعرضوا) جواب الشرط مضارع مستمر ، يدل على عنادهم الشديد، وأنهم جاهزون للإعراض بمجرد ظهور آية للرسول ﷺ وأن ظهور الآية يتبعه الإعراض ، وجملة (ويقولوا) معطوفة على (يعرضوا) لاتفاق الجملتين فى الخبرية وزمن الفعل ، فهم لا يكتفون بالإعراض بل يعتبرون هذه المعجزات ، دليل سحره ﷺ المستمر ، وقيل : " مستمر قوى محكم " وقيل : هو من استمر الشئ إذا اشتدت مرارته ، وقيل : مستمر أى : مار بمعنى ذاهب يزول ولا يبقى ، تمنية لأنفسهم وتعليلاً " [4] .

وسواء كان(مستمر) بمعنى: مطرد، أو مُّر غير مستساغ، أو مار يذهب ويزول أو بمعنى: " قوى وشديد كالحبل أذا مرّ أى أُحكم فتله" [5]،

---

(١) وتقع الواو الاستئنافية فى أول جملة مستقلة المعنى عن الجملة التى سبقتها . انظر المعجم الوسيط فى الإعراب ، صنفه د. نايف معروف ، دار النفائس بيروت .

(٢) روح البيان للبروسى ٢٦٧/٩ " المكتبة الإسلامية .

(٣) راجع أغراض التنكير فى بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح : عبد المتعال الصعيدى ١٩٦ ، دار السعادة .

(٤) الكشاف للزمخشرى تحقيق محمد مرسى عامر ٤٣١/٤ ، دار المصحف .

(٥) تفسير البغوى ٢٣٥/٤ (معالم التنزيل) دار الكتب العلمية بيروت .

فكلها معانٍ تدور فى فلك واحد ، يراد منها أن الكفار لمـــا رأوا تتـــابع الآيات والمعجزات ، زاد عنادهم وعصيانهم للحق .

ووصف السحر بأنه (مستمر) أى متواصل لا يتوقف اسم فاعل دل على التتابع ، وأنه مما تعودوا على رؤيته وأَلِفُوه حسب اعتقادهم من أن ما جاء به الرسل هو سحر وفى الصفة ما يدل على عدم الاكتراث والاستهانة بما يرون من آيات ثبت عن الرسول الكريم وقوعها .

والتقيد (بإن) الشرطية فى (وإن يروا) دليل على " تعاميهم عن رؤية آيات الله الواضحة الجلية ورفضهم لرؤيتها والنظر إليها متدبرين"[١].

وتنكير (آية) للشمول ، وللتأكيد على أنها آيات كثيرة كلما رأوا إحداها أنكروها .

لاحظ شيوع حرف (الراء) فى ألفاظ الآيتين والفاصلة أيضاً ومـــا يحدثه من التنغيم بسبب تكرار الحرف الذى يحدث ذبـــذبات عنـــد أداء الصوت المتحرك [٢] .

كما يمكن ملاحظة اتفاق الفاصلة (السجع) فى الآيتين : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ من المتوسط ، أى أن الآيتين ليستا قصيرتين ولا طويلتين ، فلا يحسن أن تولى قرينة قرينة أقصر منها كثيراً " [٣] . والفاصلتان من (المطرفة)

(١) من بلاغة النظم القرآنى د. بسيونى عبد الفتاح فيود ٦٦ ، ط١ الحسين الإسلامية .

(٢) راجع حركات الأصوات (فالراء) صوت لثوى متردد ، ويسمع هذا الصوت على صورة سلسلة من الانحباسات والانفجارات القصيرة. من كتاب أصول اللغة : د. عبد الرحمن أيوب ٣٠٣ ، م. الشباب ، القاهرة .

(٣) السجع إما قصير أو طويل أو متوسط . راجع الإيضاح ٣٤١ ، ٣٤٢ . وأنوار الربيع فى أنواع البديع للمدنى ٦/٢٥٢ .

فإنهما " متفقتان فى حروف السـجع ، متباينتان فى الوزن" [١] .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ .

وقد جاء الفعلان(وَكَذَّبُوا، وَاتَّبَعُوا)بالماضى" للدلالة علىالتحقق " [٢].

فما داموا قد حكموا بأن ما جاء من آية هو سحر ، فهـذا يعنـى تكذيبهم لها ، وهم فى ذلك متبعون أهواءهم .

والواو : استئنافية . وقد تكون حالية بمعنى وحالهم بعد أن قـالوا أنه (سحر مستمر) أن كذبوا رسول الله ﷺ ، وجملة (اتبعوا) معطوفة لإشراكها فى حكم الأولى (كذبوا) أى كذبوه واتبعوا أهـواءهم التـى زينها لهم الشيطان واتباع الأهواء مجاز بالاستعارة المكنية[٣] من تشبيه الأهواء بمن يتبعونهم ويسيرون وفق ما يملى عليهم ، فحذف المشبه به وذكر الفعل (اتبعوا) صفة من صفات الحى لتجسيد الأهواء وجعلهـا أمراً محسوساً للدلالة على سوء منهجهم وحقارة مسلكهم الذى يودى بهم إلى النار .

(وكل أمر مستقر) الواو مستأنفة ، " لتقرير بطلان ما قالوه من التكذيب واتباع الأهواء ، أى وكل أمر من الأمور منته إلـى غايـة ، فالخير يستقر بأهل الخير والشر يستقر بأهل الشر " [٤] . وتكذيبهم يعنى

---

(١) انظر البرهان فى علوم القرآن ١/٧٥ ، ٧٦ تحقيق محمد أبو الفضل ، دار المعرفة بيوت . والاتقان للسيوطى ١٠٤/٢ جـ ٣ ، ٤ دار التراث ، القاهرة .

(٢) روح المعانى ٧٨/٢٧ .

(٣) الاستعارة المكنية : هى أن يضمر التشبيه فى النفس ، فلا يصرح بشئ من أركانه سوى لفظ المشبه ، ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به ، من غير أن يكون هناك أمر ثابت حساً أو عقلاً أجرى عليه اسم ذلك الأمر (الإيضاح ٢٧٧) .

(٤) فتح القدير للشوكانى ١٢١/٥ ، دار إحياء التراث العربى بيروت .

أنه " ليس مقصوراً على آية انشقاق القمر وإنما على كل مـا أتـى الله على يد رسوله الكريم من معجزات وآيات ، وأن هذا التكذيب واتبـاع أهوائهم من عاداتهم التى ألفوها ودرجوا عليها " [١] .

(وكل أمر مستقر) ، أى : كل أمر لابد أن يصير إلـى غايـة يستقر عليها، وإن أمر محمد ﷺ سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق، أو باطل ، وسيظهر لهم عاقبته ، أو كل أمر من أمرهم وأمره مستقر ، أى : سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة فى الدنيا ، وشقاوة أو سعادة فى الآخرة ، وقرئ بفتح القاف ، يعنى : كل أمرٍ ذو مستقر أى : ذو استقرار ، أو ذو موضع استقرار أو زمان استقرار " [٢] .

وفى كل الأحوال فإن (أمرٌ مستقر) كناية عن الاسـتقرار فـى نهاية المطاف ، وأن الانتهاء إلى غاية يعلمها الله أمر متحقق لاشك فيه، وفى ذلك " وعيد للمشركين ووعد للمؤمنين) [٣] .

تأمل (السين والتاء)[٤] فى الفاصلة (مستقر) وتآلفها وانسجامها الصوتى مع ما قبلها (مستمر) وتجانس اللفظين ، مما يزيد قرعهمـا من تأكيد قوة الخبر فى (كل أمر مستقر) فإذا كنتم حكمتم بأنه سـحر مستمر ، فإن أمر محمد ﷺ مستقر على أنه الحق من ربه .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ .

---

(١) روح البيان ٢٦٨/٩ بتصرف .

(٢) الكشاف ٤٣٠/٤ .

(٣) أضواء بلاغية على جزء الذاريات : د. عبد القادر حسين ٦٧ .

(٤) التاء : صوت لثوى انفجارى مهموس ، والسين : صوت لثوى احتكاكى مهموس . راجع أصوات اللغة ٣٠٢ ، ٣٠٤ .

الواو : استئنافية . تبدأ بها جملة مستقلة . و (لقد) تفيد القسم للتوكيد والتحقيق ، على أن ما جاء من أبناء الأمم السابقة فيه من العظمة ما يجعلهم يرتدعون .

(جاءهم) أى جاء أهل مكة المعاندين الذين يكفرون بما جاء من الأخبار عن الأمم السابقة وأخبار الآخرة . وقوله (لقد جاءهم) تأكيد على أن الله أخبرهم لكى يتعظوا ، وفى ذلك دليل عليهم يوم القيامة ، يحاسبهم على أنهم عصوا بعد ما جاءهم من الأنباء ، وأبلغهم بها الرسول ﷺ . وفى قوله (جاءهم من الأنباء) استعارة فى (جاء) مكنية من تشبيه (الأنباء) بمن يجئ .

وأمثلة الاستعارة المكنية فى القرآن بالفعل (جاء) كثيرة " فالقرآن حين يصف المعانى وهى الأنباء بالمجئ والإقبال إنما يعطيها صورة طريفة، ويخلع عليها خصائص إنسانية جديدة لا تحددها الألفاظ حين نجزئ عناصر العبارة، ونعطى لكل لفظ معناه الحقيقى" [١] ، (فالأنباء) لا تأتى على الحقيقة ، فهى أمر معنوى ، لا يتصف بالحركة المحسوسة وإنما جعل ما علموه من أنباء الأمم السابقة وما حكاه القرآن عنهم كمن جاءهم ليتجسد المعنوى فى صورة محسوسة خيالية ، أكدت المعنى .

و (من الأنباء) جار ومجرور ، فى موضع الحال من (ما) فى قوله تعالى ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ مقدم عليه ، رعاية للفاصلة " [٢] أى : وجاءهم مافيه مزدجر من الأنباء ، و (من الأنباء) تفسير لما أُبهِمَ فى (ما فيه مزدجر) .

و (من) فى (من الأنباء) للتبعيض[٣] ، بمعنى : أن ما جاء بعض من الأنباء وليست كل ما يعلم الله تعالى من أخبار الغيب عن

---

(١) القرآن والصورة البيانية٢٣٨ د. عبد القادر حسين، دار المنار ط١ ، ١٤١٢/١٩٩١.
(٢) روح البيان ٧٩/٢٧ .
(٣) فتح القدير ١٢١/٥ .

الأمم البائدة ، وأن هذا البعض فيه الكفايـــة لأَنْ يزدجـــروا ويحـــسبوا للآخرة حسابها ، فيخافوا ويتعظوا .

ففى قوله (ما فيه مُزْدَجَرٌ) تجريد [١] (بفى) ، بمعنى أن الأنباء هى فى نفسها زجر وتخويف " [٢] ، أو أن القرآن الكـــريم فـــى نفـــسه موضع الازدجار ومظنة له " [٣] .

و(مُزْدَجَرٌ) [٤] على وزن (مُفْتَعَل) لزيادة التأكيد.

ويمكن ملاحظةحروف الكلمة التى تتكون من حروف تشكل مجتمعة نوعاً من الغلظة والشدة لمن يعى ويفهم ، فإنه رغم تقارب حروفها تدل على الزجر بشدة والمعنى منفر من المعصية وعظة لمن يتعظ .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ .

يريد : هى حكمة خبر لمحذوف هو المسند إليه لدلالـــة الـــسياق عليه، أو أن لفـــظ (حكمة) بدل من (ما) ، وقرئ بالنصب حالاً من (ما) " [٥] ، وجاءت (حكمة) نكرة ووصفت بأنها (بالغـــة) نكـــرة أيضاً – لأن فى التنـــكير إبهـــام يجعل المتلقى يتخيل ما لا حدود لـــه ولا قدر لبلوغه ، فهى حكمة بالغة لا يعرف مقدارها إلا الله .

---

(١) والتجريد : هو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله فى تلك الصفة مبالغة فى كمالها فيه ، وهو أقسام أربعة : إما بـــ (من) أو (فى) أو (الباء) أو بدون أداة . انظر الإيضاح ٨/٣ .

(٢) انظر أضواء بلاغية على جزء الذاريات ٧٠ ، دار غريب للطباعة والنشر .

(٣) الكشاف ٤٣٢/٤ .

(٤) زجر : المنع والنهى ، والانتهار ، زجره وازدجره ، فانزجر وازدجره كان فى الأصل ازتجر ، فقلبت التاء دالاً لقرب مخرجيهما . لسان العرب مادة (زجر) .

(٥) المرجع السابق ٤٣٢/٤ .

و (بالغة) أى بلغت ما لايمكن إدراكه . والمراد هى إنذار ووعيد.

وقد جُعِلَ من صفة الحكمة أنها (بالغة) ، " ولم يجعل البلاغة من صفة الحكيم " [١] على سبيل المجاز العقلى[٢] ، علاقته المفعولية أى بليغ صاحبها ، " ووصف القرآن بالحكمة البالغة فذلك لبلوغه الغاية المتناهية فى الزجر ولاحتوائه على الحكمة العلمية والعملية " [٣] .

(فما تغن النذر) والفاصلة فى (النذر) متمكنة يتعلق معناها بما قبلها فإن مجئ القرآن بالأنباء وما فيها من زجر وتخويف إنذاراً للمكذبين لكن دون جدوى ، و " (ما) منصوبة أى : فأى غناء تغنى النذر، ففى الآية نفى أو إنكار " [٤] أى لا جدوى منها .

ونفى الخبر فى الآية ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ يأتى على خلاف مقتضى الظاهر فينزل غير السائل منزلة السائل حيث تقدم على الآية ما يلوح بمضمون الخبر ويضمر فى النفس سؤالاً ، يكون الخبر رداً عليه فقد سبق قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ ، فكان السؤال الذى يتردد هو وهل استجابوا .

وقال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ (القمر: ٦ – ٨).

---

(١) الصناعتين لأبى هلال العسكرى ١٦ بتصرف ، تحقيق د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية .

(٢) المجاز العقلى : هو الكلام المفاد به من خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأول إفادة للخلاف لابواساطة وضع. مفتاح العلوم للسكاكى٢٠٨،وبغية الإيضاح ٨٠.

(٣) انظر تفسير الخازن ٢٧٤/٦ . والبغوى ٢٣٦/٤ بتصرف ، (معالم التنزيل) دار الكتب العلمية بيروت .

(٤) الكشاف ٤٣٢/٤ بتصرف .

(فتول) والفاء استئنافية والفعل أمر حقيقى لازم التنفيذ مـــن الله سبحانه وتعالى لنبيه أن أعرض عنهم واتركهم " لعلمك أن الإنـــذار لا يغنى فيهم " [١] . وفى الآية ترك (مقدر) بمعنى : (فتول عنهم إلـــى يوم) ولأنه مفهوم من السياق ترك ، وقيـــل: إن الحـــرف المحـــذوف (الواو)(لالتقاء ساكنين) [٢]، وبشئ من التأمل يلحظ أن الجملتـــين تـــم الفصل بينهما لاختلافهما خبراً وإنشاءً فالأولى إنشائية (فتول) والثانية خبرية (يوم يدع الداع) وهى كناية عن يوم القيامـــة ، حـــين يـــدعو الداعى أى : ينفخ فى الصور فيبعث الناس من أجداثهم .

و (الداع) إما حقيقى كما ذُكر – " إنه إسرافيل أو جبريل " [٣] ، وقد يكون مجازياً بمعنى تجسيد نفاذ مشيئة الله وأمره فى صـــورة داعٍ يدعو الناس للقائه على سبيل الاستعارة[٤] التـــصريحية الأصـــلية فـــى (الداع) والمراد يوم تتم فيه مشيئة الله وإرادته فى الكون أى يوم القيامة.

وحذف (الياء) من (الداعى) (مبالغة فى التخفيف) [٥] .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ .

والمراد : (فتولى عنهم إلى يوم يدع الداع) و (إلى) مفهومـــة من السياق لذلك لم تذكر .

---

(١) المرجع السابق ٤٣٢/٤ .
(٢) روح البيان ٢٦٩/٩ .
(٣) الكشاف ٤٣٢/٤ .
(٤) الاستعارة التصريحية الأصلية : هى اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة فإذا كان اللفظ المستعار اسماً جامداً فهى استعارة أصلية. راجع القرآن والصورة البيانية ١٩٣: ٢٠٢.
(٥) روح المعانى ٧٩/٢٧ ، روح البيان ٢٦٩/٩ .

والأمر من الله لرسوله يقول له : أعرض عن هؤلاء الكفار المكذبين رغم رؤيتهم آيات الله فإنهم لا يرتدعون فالأمر حقيقى ملزم لرسوله الكريم ، أن يتولى عنهم ، و (الفاء) سببية [١] بمعنى : تول عنهم يا محمد بسبب إنكارهم وتكذيبهم لما يرون من معجزات جئت بها وتركوك واتبعوا أهواءهم .

" والنكُر : من نَكُرَ الأمر : صعُب واشتد ، وكذلك معناه : الأمر المجهول " [٢] ، وهو الأمر " الذى ينكرونه استعظاماً لعدم تقدم العهد لهم بمثله " [٣] .

وقوله (إلى شئ نَكُر[٤]) تهويل وبيان لصعوبة وشدة هذا الشئ المبهم المجهول ، فإن لفظ (شئ) يجعله أمراً هيناً لكن وصفه بأنه (نُكُر) بياناً لكونه أمراً فظيعاً ينتظر الكفار يوم القيامة، وهكذا جاء لفظ الفاصلة مناسباً لبيان (شئ) كما جاء مؤتلفاً مع الفاصلة قبله (نذر – نكر) إذ اتفقتا فى الهيئة بالإضافة إلى النون والراء .

ويمكن ملاحظة جناس الاشتقاق بين (يدع ، الداع) فالفعل والاسم من مادة (دعا) .

قال تعالى :

﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾.

---

(١) الكشاف ٤٣٢/٤ .

(٢) لسان العرب مادة (نكر) .

(٣) فتح القدير ١٢١/٥ .

(٤) نُكر : بضم النون والكاف أى : شئ صعُب واشتد ، والنكر : المجهول (لسان العرب مادة : نكر) .

والخشوع[١] يوم القيامة ، ذكر أكثر من مرة بأساليب مختلفة .

و " خشوع الأبصار : كناية عن الذلة والانخزال ، لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران فى عيونهما لذلك يمكن اعتبار ذكر الأبصار مجازاً مرسلاً من ذكر الجزء وإرادة تمام الخشوع للإنسان بحيث يعرف خشوعه من مظهره وحركاته . يريد : إن هؤلاء المعاندين يخرجون من الأجداث يوم القيامة أزلة أبصارهم ، من هول ما يرون من هذا الشئ النُكر كما وصفه الله تعالى . وتقديم الحال فى (خشعاً) " لتصرف العامل يخرجون وللاهتمام " [٢] كما عبر عنها بالجمع (خشعاً) " لأن الجمع فيه معنى الكثرة كما أنه يستعار لقوة الصفة " [٣] .

والفصل فى (يخرجون) لأنها بيان وتفسير لقوله (خشعاً) ، بمعنى (تخشع) أبصارهم وهم يخرجون من الأجداث : أى القبور ، والخشوع لا يكون للأبصار فقط وإنما يكون للإنسان كله فى حالة خشوع فعبر بالجزء وأراد الكل على سبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية .

ومن الملاحظات الدقيقة فى تصوير خشوع الكفار يوم القيامة : " إن خشوع المؤمنين لله يكون فى الدنيا ، وخشوع الكفار والمجرمين والظالمين يكون فى الآخرة ، وسره البيانى هو أن خشوع الكفار

---

(١) فمن ذكر الخشوع قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ وصف الكفار بأن وجوههم حزينة زليلة ، وخص الوجه بالذكر لأن الحزن والسرور يبدو أثرهما على الوجه ، فعبر بالوجوه وأراد أصحابها من التعبير بالجزء وإرادة الكل لعلاقة الجزئية . انظر القرآن والصورة البيانية ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) روح المعانى ٢٧/٨٠ .

(٣) الإعجاز البيانى فى صيغ الألفاظ: د. محمد الأمين الخضرى ٢٣٧، طبع الحسين ط١

لا يكون إلا بعد أن يأتى اليوم الذى يدعون فيخشعون خوفاً ورهبة وذلة، على حين يخشع المؤمنون فى الدنيا عن صدق وإيمان وتقوى وخشية لله " [١] .

وفى الواقع فإن المؤمنين يخشعون لله فى الدنيا والآخرة ، فالخشوع لله دائم ومتواصل لأن خشوع المؤمن يوم القيامة كما كان فى الدنيا حباً فى الله ورهبة من لقائه ورغبة فى طاعته، وليس كخشوع الذل الموصوم به الكفار يوم البعث .

وفى قوله ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ صورة تشبيهية من تصوير المحسوس بالمحسوس، تمثل أوقع صورة لحال الناس وهم يخرجون من الأجداث خشعاً أبصارهم منتشرين فى كل مكان ، فشبههم بهيئة الجراد المنتشر ، بجامع الكثرة والانتشار مع التموّج والتدافع ، فإن قيل أداة التشبيه (كأنهم) متعلق بالصورة ، فإن حال الناس عند خروجهم حال الذليل الخاشع المتدافع دون إرادة منه وإنما هى دعوة الحق يلبيها دون تفكير فى خطورة الموقف وصعوبته فهو حينها المأمور بالطاعة ، لا يعرف أين يتوجه فالجميع يتخبط فى سيره ، يتلاطم كتلاطم الموج ، حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ [٢] وقد شبههم فى آية أخرى بالفراش المبثوث فى قوله ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾[٣] ، وكلها صور تدل على الحركة السريعة مع التخبط والترنح فى كل اتجاه .

---

(١) الإعجاز البيانى للقرآن : د. عائشة عبد الرحمن ٢١١ ، دار المعارف ، القاهرة .
(٢) سورة الكهف : آية ٩٩ .
(٣) سورة القارعة : آية ٤ .

وقد تكون الصورة من تشبيه الناس بعامة – وليس للكفار بخاصة " بالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر " [١] وحتى مع علمهم بالمقصد الذى يتوجهون إليه ، فإن ذلك لا يمنع كونهم فى حالة من سلبت إرادته عند البعث والانتشار فيهيم على وجهه مترنحاً من هول ما يرى ، ويمكن ملاحظة كيف جاءت الفاصلة (منتشر) صفة للجراد زيادة فى بيان الصورة التشبيهية ومراعاة لائتلاف الفواصل .

قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

والمعنى : أن هؤلاء الكفار حالهم يوم يدعُ الداع يكونون " مسرعين إلى جهة الداعى ، مادى أعناقهم إليه أو ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم " [٢] .

والحال (مهطعين) اسم فاعل وهو فعل قليل الاستعمال، وقد عبر بتركيبة حروفه المتباعدة المخارج عن السرعة غير الطبيعية مع تركيز البصر ومد العنق إلى الأمام ، فإن الفعل هطع معناه : " أقبل على الشئ ببصره فلم يرفعه عنه " [٣] .

وفى قوله (يقول الكافرون) رغم أنه سياق ضمير الغيبة ، لكن القارئ للآية يستشعر الالتفات وليس بالتفات حسب القاعدة البلاغية ، فبعد أن ذكرهم بضمير الغائب فى (مهطعين) يعرفهم بذكر صفتهم (الكافرون)، ولو قال (يقولون) لعرفوا بالضمير ، ولكن السر فى ذكر[٤]

---

(١) روح المعانى ٨٠/٢٧ ، وانظر من بلاغة النظم القرآنى : د. بسيونى عبد الفتاح فيود ٢٠٢ : ٢٠٤ . وراجع القرآن والصور البيانية ٤٧ .

(٢) انظر الكشاف ٤٣٢/٤ . وروح البيان ٢٧٠/٩ . وابن كثير ٢٦٤/٤ .

(٣) لسان العرب ، مادة (هطع) .

(٤) راجع أغراض الذكر فى بغية الإيضاح : عبد المتعال الصعيدى ٩٤ ، دار السعادة ١٤٢٦/٢٠٠٥ .

اسمهم للتذكير والتقرير وتثبيـت صفة الكفر فيهم ، وكأن (المهطعين ، غير الكافرين) فهم أنفسهم الذين يسارعون وهم يرددون (هـذا يـوم عسر) وفى الجملة كناية عن صفة وهى صعوبة الموقف فى ذلك اليوم وشدته وفظاعة ما يرون فيه .

وقيل إن جملة " يقول الكافرون ... " مستأنفة ، جـواب لـسؤال مقدر " [١] من شبه كمال الاتصال ، أى : وماذا يقول الكافرون ؟

وكأن المراد من الجملة المستأنفة أن يستثنى المؤمنون ، ليكـون يوماً عسراً على الكفار وحدهم " ففى إسناد هذا القول إلى الكفار دليـل على أن هذا اليوم ليس بشديد على المؤمنين " [٢] . فهو يوم سهل عليهم صعب على الكافرين .

---

(١) تفسير أبى مسعود ١٦٨/٨ . وفتح القدير ١٢٢/٥ .

(٢) تفسير أبى مسعود ١٦٨/٨ . وفتح القدير ١٢٢/٥ .

المبحث الثانى

قصة قوم نوح

تنتهى الآيات الثمانية السابقة ليبدأ الحديث عن الأمـــم البائـــدة ، ليكون برهاناً على قدرة الله فيخاف الكافر ، ويعود إلى ربه وتبدأ القصة الأولى بقوله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَـــا أَبْـــوَابَ الـــسَّمَاءِ بِمَـــــاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَـــدْ قُـــدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ (القمر : ٩ – ١٤) .

وذكر قصص الأمم السابقة ، جاء كما قيل تسلية وتسرية للرسول الكريم وتهدئة له، بعد عناد الكفار المستمر له واتهامه بالسحر، فالمراد: إنك يا محمد لا تبتئس ولا تحزن ، لأن الأمم التى سبقت وكذبت رسلها انتهى أمرها فإن قوم نوح عندما كذبوه ، واتهموه بالجنون ، وأحس أنه مغلوب على أمره ، دعا ربه ان ينصره ، فنصره عليهم ، بـــأن فـــتح عليهم الماء من السماء ومن الأرض ، والتقى ماء السماء بماء الأرض، فأغرقهم الله جميعاً ، ونجى نبيه .

يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَـــذَّبُوا عَبْـــدَنَا وَقَـــالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ .

والمعنى : وقوم نوح الذين كذبوه واتهموه بأنه مجنون وازدجر فإن أول ما يلفت في الآية تكرار[١] فعل الكذب ، قيل " إن المعنى : كذبوا فكذبوا عبدنا أي : كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا . أي لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً : كذبوا نوحاً، لأنه من جملة الرسل " [٢] .

وقيل : " الفاء في قوله (فكذبوا) تفسيرية ، تفصيلية تعقيبية في الذكر ، فإن التفصيل يعقب الإجمال " [٣] .

وغريب هذا الأسلوب الذي ما هو بالالتفات ، ولكن كأنه التفات لأن تكرار الفعل بهذه الطريقة يلفت الانتباه ، وتعريف قومه بإضافة نوح عليه السلام " للإغناء عن تفصيل متعذر " [٤] ، ولأنهم لم يكن لهم اسم يعرفون به " [٥] .

وقيل إن تكرار الفعل فيه " تفسير لذلك التكذيب المبهم ، وفيه مزيد تقرير وتحقيق للتكذيب ، كما في قوله تعالى ، ونادى ربه إني مغلوب فانتصر ، أي ونادى نوح ربه " [٦] .

---

(١) والتكرار : هو أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه سواء كان اللفظ متفق المعنى أم مختلفاً ، أو يأتي بمعنى ثم يعيده (الفوائد – المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان) لابن قيم الجوزيه ، القاهرة ١٣٢٧هـ . والجامع الكبير ، تحقيق د. مصطفى جواد وآخر ، بغداد ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م . وخزانة الأدب ١٦٤ .

(٢) الكشاف ٤/٤٣٣ .

(٣) روح البيان ٩/٢٧١ .

(٤) بغية الإيضاح ١١١ .

(٥) روح المعاني ٢٧/٨٤ .

(٦) تفسير أبي مسعود بتصريف ٨/١٦٩ .

و " إضافة العبودية[١] إلى نون العظمة فى قوله تعالى : " عبدنا " تفخيم له عليه السلام ورفع لمحله ، وزيادة تشنيع المكذبين ، كما أن فيه إشارة إلى شرف العبودية لله وحده ، فإن الذلة الحقيقية التى يقابلها مقام الربوبية مختصة بالله تعالى كذلك العبودية مختصة بالعبد وهى المرادة بالتواضع " [٢] .

(قالوا مجنون) أى هو مجنون، والضمير[٣] محذوف لدلالة السياق، وللتقليل من شأنه ، وقيل اتهامه بالجنون " مبالغة فى التكذيب " [٤] والصحيح أنهم بعد أن كذبوه لم يكتفوا بذلك بل وصفوه بالجنون ، زيادة فى التأكيد على أن ما جاء به نتيجة اختلال فى العقل ، والمختل عقلياً لا يستمع إليه أصلاً باعتبار أن كل ما يقوله هراء فلكى يفصلوا فى القول ولا يدعوا مجالاً لمن يتشكك فى كلامهم ويظن أنه صادق قطعوا بأنه مجنون وازدجر أيضاً .

وجملة (وازدجر) فعل ماضى مبنى للمجهول، معطوفة على قالوا.

وقيل : إن الجملة " من كلام الله تعالى ، وإخبار منه بأنهم نهروه عن التبليغ بكل أنواع الأذى من شتم وضرب" [٥]و" الوعيد بالرجم " [٦].

وقيل " إن (ازدجر) من جملة ما قالوه أى هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته " [٧] .

---

(١) راجع أغراض التعريف بالإضافة ١١٠ ، ١١١ .
(٢) روح البيان ٢٧١/٩ .
(٣) راجع أغراض الحذف فى بغية الإيضاح ٩١ : ٩٣ .
(٤) تفسير أبى مسعود بتصريف ١٦٩/٨ .
(٥) روح البيان ٢٧١/٩ .
(٦) الكشاف ٤٣٣/٤ .
(٧) تفسير أبى سعود ١٦٩/٨ والكشاف ٤٣٣/٤ .

فجاءت الفاصلة (وازدجر) متممة المعنى ممكنة علــى القــول بالعطف وفيها زيادة توضيح لدرجة جنونه على القول بأن الجن ذهبت بلبه وطارت بقلبه ، لذلك جاء الفعل مبنياً للمجهول ، وليحتمل أكثر من تفسير . والرأى : أنهم لما قالوا عنه إنه كاذب ومجنون كان ذلك أدعى أن يزدجره الناس، فالفاعل فى الفعل المبنى للمجهول يعود على الكفار. بدلاً من قوله (وازدجروه) كنوع من لفت الانتباه بدليل قوله بعد ذلك (أنى مغلوب فانتصر) .

قال تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ .

و (الفاء) للترتيب والتعقيب فبعد أن اتهم بالجنون وازدجر مــن قومه ، أو من الجن ، حسب بعض الأقوال ، فإنه شعر بأنه مغلوب على أمره ، لا يقدر على مواجهة القوم الضالين ، (دعا ربه) ، فقال (أنى مغلوب) جملة من الضرب[١] الطلبى المؤكدة (بإن) كأنه قال : إنــى أنا مغلوب على أمرى من قومى ، وطلب من ربه أن ينتصر فجــاءت الفاصلة القرآنية فعلاً مسبوقاً بالفاء (فانتصر) أمر[٢] خرج إلى معنى الدعاء ، ويطابق قوله (مغلوب) مطابقة بين اسم وفعل .

والانتصار هنا بمعنى الغلبة على الظالمين فقد دعا نوحاً ربه ، أن ينتصر له أى يؤازره ويساعده لتحمل مشقة عنادهم واتهامهم له بالجنون.

---

(١) أضرب الخبر ثلاثة: (١) ابتدائى بدون مؤكد . (٢) طلبى بمؤكد واحد . (٣) إنكارى بأكثر من مؤكد (راجع بغية الإيضاح ٦٨) .

(٢) الأمر من الأساليب الإنشائية التى تأتى لأغراض بلاغية متعددة . راجع أساليب بلاغية : د. أحمد مطلوب ١١٠ : ١١٦ وكالة المطبوعات ، الكويت ط ١ ، ١٩٨٠ .

قال تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَــا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَــاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ .

و (الفاء) استئنافية ، ونون العظمة لله متصلة بالفعل الماضـــى، (ففتحنا) للدلالة على أن فتح السماء كان بإرادة الله تعـــالى ، والفعـــل مجازى ، على سبيل الاستعارة[١] التبعية بمعنى فدفعنا الماء من السماء، وقد يكون استعارة مكنية من تشبيه السماء بالبناء له أبواب تفتح ، فيندفع منها الماء بلا توقف ، ثم حذف البناء ، وذكر شيئاً من لوازمـــه وهـــى الأبواب .

وجاءت الفاصلة القرآنية (منهمر) متمكنة مؤكدة على أن الماء دائم الاندفاع لا ينقطع ، فقد ظل منهمراً حتى أغرق كل كافر عنيد .

وجاءت (الباء) فى (بماء) " للاستعانة وجعل الماء كالآلة لفتح الأبواب " [٢] أى كأنه قال بواسطة ماء ، والقصد أن يتخيـــل الـــسامع اندفاع الماء بمجرد فتح الأبواب أو أن الماء هو الذى فتح الأبـــواب . أبلغ من قوله (ففتحنا الأبواب وانهمر الماء)

وتنكير (ماء) ووصفه بـــ (منهمر) للدلالة على عظمه وكثرته وغزراته مع شدة اندفاعه بحيث لا يبقى شيئاً إلا ويغرقه .

قال تعالى :

﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ .

---

(١) إذا كان اللفظ المستعار فعلاً أو اسماً مشتقاً أو حرفاً فهى استعارة تبعية . وتبعية لأن التجوز فيها بطريق التبع ، انظر شروح التلخيص ١٠٨/٤ .

(٢) روح البيان ٢٧٢/٩ .

والواو تعطف الفعل (وفجرنا) على (ففتحنا) ، للاتفـاق فـي الخبر وزمن الفعل .

" وقوله (وفجرنا الأرض عيونا) أبلغ مـن (وفجرنـا عيـون الأرض) ونظيره في النظم " واشتعل الرأس شيبا " [١] .

والمعنى : أنه " بإرادته سبحانه اندفع الماء من الأرض ، فالأصل أن يتفجر الماء مـن العيون ، لكنه أراد أن يبـالغ فكأنـه جعـل الأرض كلها أصبحت عيوناً متفجرة بالماء ، ولـيس فيهـا جـزء إلا وينفجر فيه الماء " [٢] . وقد جعل الفعل بالتشديد (وفجرنا) ليفيد زيادة الاندفاع والانبثاق والقوة والسرعة . وجاءت (عيون) نكرة للتعمـيم والشمول . ففي تشبيه الأرض بالعيون زيادة مبالغة في كثرة العيـون التي تفجرت فيها أي فجرنا الأرض كلها فأصبحت كالعيون ، تـشبيهاً مفرداً محسوساً.

(فالتقى الماء) والفاء للترتيب والتعقيب أي بعد أن انهمر الماء من السماء وتدفق الماء من عيون الأرض التقى الماء ، ولم يقل (الماءان) " لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة والتقارب بل بطريق الاختلاط والاتحاد " [٣] .

وقوله تعالى: ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ " أي على حال قدرها الله كيف شاء ، وقيل : على حال جاءت مقدرة مستوية . وهي : أن قدر ما أنزل

---

(١) الكشاف ٤٣٤/٤ .

(٢) أنوار الربيع في أنواع البديع للمدني ٢٤٤/١ . وروح المعاني ٨٢/٢٧ . ومن بلاغة النظم القرآني ١٤٠ بتصرف .

(٣) تفسير أبي السعود ١٦٩/٨ . وروح البيان ٢٧٢/٩ .

من السماء كقدر ما أخرج من الأرض سواء بسواء ، وقيل : على أمر قد قدر في اللوح أنه يكون وهو هلاك قوم نوح بالطوفان[١] ، " وكلمة (على) للتعليل " [٢]، بمعنى (الأمر)،والتفسير الأول هو المناسب للسياق.

وتعريف (الماء) رغم تنكيره في الآية التي سبقت ، للإشارة إلى معهود بين المتكلم والمخاطب .

وجاءت الفاصلة القرآنية مسبوقة بـ (قد) للتوكيد على أن التقاء الماء لم يكن مصادفة ، ولم يكن بلا هدف ، وإنما (على أمر قد قدر) أي مقدر .

قال تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ .

وإسناد الفعل إلى الله عز وجل بـ (نون) العظمة من الأساليب المؤكدة القوية في القرآن لأنه فعل لا يقدر على تحقيقه إلا الله القادر على كل شئ فـ (الواو) استئنافية ، والضمير (الهاء) لنوح عليه السلام، يخبرنا الله تعالى أنه قد نجاه من الغرق وحمله " على سفينة ذات ألواح وهي الأخشاب العريضة ، ودسر وهي المسامير التي تشد بها الألواح أحدها دسار ، وكل شئ داخل في شئ يشده فهو دسر " [٣] .

و (ذات ألواح ودسر) كناية عن موصوف ، فهي[٤] من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنوب منا بها وتودي مؤداها ، بحيث

---

(١) الكشاف ٤/٤٣٤ .
(٢) روح البيان ٩/٢٧٢ .
(٣) فتح القدير ٩/٢٧٢ .
(٤) الكناية : لفظ أطلق وأريد لازم معناه مع جواز إرادته معه ، وتنقسم إلى ثلاثة : كناية عن صفة ، كناية عن موصوف ، كناية عن نسبة . راجع الشروح للقزويني وغيره ٤/٢٣٧ ، ط عيسى الحلبي .

لا يفصل بينها وبينها ... وهذا من فصيح الكلام وبديعه " ، أى " لا تجد فرقاً بين ما يدل عليه الوصف وما يحمله الموصوف من معنى ، ومن أجل ذلك لا يجوز هنا أن نجمع بين الموصوف وصفته ، أى بين السفينة وبين هذه الصفة " [١] .

وهو " كناية عن موصوف بجملة معانٍ وهى الألواح والدسر " [٢] وفيها ما يدل على الضعف فهى مجرد ألواح ومسامير فيها مخاطرة شديدة مع الماء الغزير المدمر فإن فى الفعل (حملناه) الفاعل هو الله مما يدل على رعايته وعنايته وحبه لنبيه ، وإسناد الحمل إلى الله سبحانه إسناد حقيقى أى حقيقة عقلية لأن القصد أن السفينة أبحرت برعاية الله وحفظه من إسناد الفعل إلى المسبب الحقيقى فى الحفظ فالسفينة ما هى إلا أداة سخرها الله لإنقاذ نبيه . وخص النبى نوح بالحمل مع أن السفينة حملت معه من آمنوا به من ذكر الواحد وإرادة الكل على سبيل[٣] المجاز المرسل لأن من معه تبع له .

فلم يقل : وحملته الجارية أو السفينة ، مما يدل على أن النجاة كانت بيد الله المسبب للأشياء ، لا بقوة السبب (السفينة) ، ويؤكد هذا الآية التالية فى قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ .

---

(١) الكشاف ٤٣٤/٤ . وانظر النظم القرآنى فى كشاف الزمخشرى : د. درويش الجندى ١٩٦ ، ط نهضة مصر .

(٢) روح المعانى ٨٣/٢٧ .

(٣) المجاز المرسل : هو من المجاز اللغوى : من استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى . فما كانت علاقته المشابهة يسمى استعارة ، وما كانت علاقته غير المشابهة يسمى مجازاً مرسلاً ، وعلاقاته كثير منها السببية والمسببية والجزئية والكلية ... إلخ . انظر الإيضاح ٢١٤٧ : ٢٥١ ، والقرآن والصور البيانية ١٦٩ وما بعدها .

فإن قوله (تجرى بأعيننا) دليل على كمال القدرة الإلهية وبـــالغ الحفظ والكفاءة " [١] والسفينة لا تجرى فالفعل استعارة تبعية (تجـــرى) بمعنى تتحرك ولما كان الجرى أسرع استعير لحركة السفينة على الماء. والباء حرف جر دخل على الاسم الظاهر (بأعيننا) والجار والمجـــرور كناية عن صفة " الحفظ لأنها آلته، تقويها كناية أخرى وهى جمع الأعين للدلالة على شدة الحفظ والمبالغة فى الرعاية " [٢] . فقد عبر بكثرة آلة الحس الذى يحفظ به الشئ ويراعى من الاختلال والزيغ عن المبالغة فى الحفظ والرعاية " [٣] .

وقيل إن " بأعيننا " مجاز مرسل علاقته الآلية حيث ذكر اسم الآلة وأريد الأثر الذى ينتج عنها " [٤] . والظاهر من المعنى يتفق مع الرأى القائل إنه كناية عن الحفظ والرعاية ، وقيل : " إن (الباء) تدل علـــى الالتصاق والمصاحبة مما يدل على معية الله تعالى وقربه مـــن نـــوح وإنجائه له " [٥] .

ومثل ذلك فى سورة هود (آية ٣٧) قوله تعـــالى : ﴿ واصـــنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ " وأهل السنة يأخـــذون بظـــاهر الآيـــة دون أن يعملوا فكرهم أو يجهدوا ذهنهم ، فابن قتيبـــة يـــرى أن هـــذه الآيـــة وأضرابها تمضى على الحقيقة ، وليس فيها شئ من المجاز ، والمعتزلة يتناولون مثـــل هـــذه الآية بالتأويل حتى تتفـــق وجلال الله سبحانه " [٦]

---

(١) من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم ٦٣ .
(٢) الإعجاز البيانى ١٠٨ . ومن بلاغة النظم القرآنى ٤٠٧ .
(٣) تفسير البيضاوى ٩٦/٥ .
(٤) البرهان ٢٨٣/٣ . والصناعتين ٣١١ .
(٥) من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم ١٧٨ .
(٦) القرآن والصور البيانية ١٤٢ .

" واعتبروا التفسير بالحقيقة هنا ضرباً من السذاجة يساعد علـــى نـــشر التصورات الشعبية ، مما دعا أهل السنة أن يعدلوا عن موقفهم ويقتربوا من موقف الخصوم ، ثم الإيمان بأن هذه الألفاظ لا ســبيل إلـــى إدراك كنهها " (١) .

وجاء قوله (جزاءً لمن كان كفر) من تتمة الجملة فهو يريـــد أن نجاة نوح فى السفينة، وغرق فرعون وملئه ، جزاء لهم على كفرهم لله.

وقوله تعالى ذلك بعد حديثه عن نجاة نوح عليه السلام ، نوع من التناظر البديع للنهاية ، والجزاء الذى حصل عليه كل منهما .

ولفظ (كُفِر) قُرئ بعدة معانٍ ، منها (كُفِر) مبنـــى للمفعـــول والمراد به نوح ، وقيل المراد به هو الله سبحانه وتعالى ، لأنهم كفروا به وجحدوا نعمته ، كما قرئ بفتح الكاف والفاء (كَفَرَ) مبنياً للفاعـــل أى جزاء ، عقاباً لمن كفر بالله " (٢) .

و(كان) الفعل الناسخ جاء للتوكيد لأنه كما قيل: " زائد ، كأنه قال: جزاءً لمن كفر ولم يؤمن " (٣) . أى جزاء لمن سبق بالكفر وأصر عليه.

قال تعالى :

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر : ١٥ – ١٧) .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

---

(١) انظر الصور الأدبية (فصل المؤثرات الروحية) ٧٤ : ٨٨ ، دار مصر للطباعة .
(٢) فتح القدير ٥/٢٢٣ .
(٣) روح المعانى ٢٧/٨٣ .

قيل " إن الضمير فى (تركناها) للسفينة ، أو للفعلة ، أى جعلناها آية يُعتبر بها ، والمدَّكر : المعتبر " [١] . والمعنى " أبقينا السفينة علـــى الجودى حتى رآها بعض أوائل هذه الأمة لتكون آية ودليلاً على قـــدرة الله ، وعبرة وعظة لمن يعتبر " [٢] .

بدأت الآية (بالواو) الاستئنافية ثم (لقد) المؤكدة .

قيل : إن قوله (فهل من مدكر) استفهام تعجبـــى مـــن عــــــدم اتعاظهم " [٣] ، والحقيقة أنه يمكن أن يكون استفهاماً لإفـــادة النفـــى ، بمعنى لا يوجد من مدكر ، أو بمعنى الأمر أى : عليكم بعد أن علمـــتم الآية وشاهدتوها أن تتعظوا . أى : " هل هناك عاقل يتذكر عاقبة الكفر بالله فيبعد عنه ، أى : ابتعدوا عن الكفر إذا كنتم عقلاء " [٤] .

و (من) تدل على أنه لايوجد ولا واحد يتعظ مـــن هـــذه الآيـــة الماثلة أمامهم سنين طوال ، والاستفهام موجه لكفار مكة لعلهم يتعظوا ويتنبهوا فيرجعوا إلى كلمة سواء ، وينقذوا أنفسهم قبل أن يأتى يـــوم لا تنفع فيه شفاعة ولا دعاء .

قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .

والاستفهام المتعلق (بالفاء) فى (فكيف كان عـــذابى) بمعنـــى " التهويل والتعظيم والوعيد "[٥].

---

(١) الكشاف ٤/٤٣٥ . ودراسات لأسلوب القرآن ١٠١ .
(٢) راجع الكشاف ٤/٤٣٥ . وتفسير أبى السعود ١٧٠ بتصرف .
(٣) راجع أضواء بلاغية على جزء الذاريات ٧١ .
(٤) الإيضاح ١٤٠ . ومن بلاغة النظم العربى ٢/٦٣ .
(٥) انظر تفسير أبى السعود ٨/١٧٠ .

وقد تكرر وسوف يتكرر – لزيادة التأكيد والتنبيه للكفار ، لكى لا يكون لهم حجة على الله يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

والآية مكررة فقد تعددت مقامات التوكيد بإسناد الفعل إلى الله عز وجل بـــ (نون العظمة) فى الآيات (١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠) ، فسوف تتكرر مع كل حكاية عن الأقوام السابقة ، كما تكررت آيـــة ﴿ فَكَيْـــفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ مع اختلاف فى الآية (٣٩) يقول تعالى : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .. وذلك من إعجاز النظم القرآنى ، فإن تكرار القسم فى (ولقد يسرنا) والاستفهام فى ﴿ فَهَلْ مِن مُّـــدَّكِرٍ ﴾ تنبيــــه وتحـــذير، وكذلك الاستفهام فى ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تنبيه وتحذير ، للكفار ولكل معاند ، ودليل إصرار على أن الله سيعاقب كل آثم بإثمه ، وسوف يكون عذابه شديد لمن كفر ، والتكرار أيضاً للزجر فهكـــذا يـــريهم الله نهاية من كذب وكفر ، كذلك فإن التكرار لكى لا يكون لهم حجة يـــوم القيامة ، فإن الله نبههم وحذرهم أكثر من مرة ولكنهم صموا وعموا .

إن ترك السفينة على اليابسة لتكون آية وعبرة ، فيها أيضاً إنذار لمن لم يعتبر لذلك جاء قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي ﴾ أى عذابى لقوم نوح ممن عصوا وكفروا ثم إنذار لمن يكذب ولا يعتبر " من الأمم اللاحقة وخاصة قريش ونلاحظ أنه أفرد العذاب ، وجمع الإنذار – فى الفاصلة القرآنية – إشارة إلى غلبة الرحمة لأن الإنذار إشفاق ورحمة ، فإذا لم يعتبروا وقع عليهم العذاب مرة واحدة فكانت النعمة كثيرة والنقمة واحدة " [1] ، كما أن ورود الفاصلة جمعاً – أيضاً – لتتلائم مع أخواتها

---

(١) أضواء بلاغية على جزء الذاريات ٢٧٢ .

من فواصل السورة فيتتابع الإيقاع المتلاحم والصوت المتوازن ، نتيجة اتفاقها فى حروف الروى وإن اختلفت فى الوزن ، مما يسمى كما ذكر (المطرفة) ، والمراد بالنذر : إنذارى لهم بالعذاب قبل نزوله بهم " [١].

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

والآية من الأخبار التى أسند فيها الفعل إلى الله عز وجل بنون العظمة، " للتأكيد فى هذا الموطن لتحقيق الفعل، والإشعار بعظمة القرآن وحاجته إلى قدرة لا يعجزها شئ ألا وهى قدرة الله تعالى ، والإشارة إلى أنه من الأفعال التى يختص بها الله عز وجل دون سواه " [٢].

و (اللام) مع (قد) للقسم، بمعنى : أن الله يقسم لنبيه أنه سهل ويسر القرآن ليذَّكروا، أى: " أنزلناه بلغتهم ليتفهموه ، وحويناه أنواع المواعظ والعبر والوعد والوعيد ليتذكروا ويتعظوا "[٣]، وقد يكون بمعنى : " ولقد سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه ، فهل من طلب لحفظه ليعان عليه . ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيأناه للذكر " [٤] .

(فهل من مدكر) قد يراد بالاستفهام معنى " الأمر أى اذكروا واتعظوا " [٥] ، وقد يكون الاستفهام إنكارياً بمعنى النفى أى : ليس هناك مدَّكر ليتعظ .

---

(١) الكشاف ٤٣٥ .
(٢) دراسات تحليلية للفصاحة والبلاغة والإسناد : د. الشحات محمد أبو ستيت ص ١١٦، ط (بدون) .
(٣) روح المعانى ٢٧٢/٩ .
(٤) الكشاف ٤٣٥/٤ .
(٥) البلاغة علم المعانى : د. أحمد النادى شعلة ١٢٦ ، المحمدية ط ١ .

وقوله (للذكر) يعنى : لكى يذكره كل إنسان ، لا فرق بين واحد وآخر فالقرآن : " ليس كتاب العلماء ، وحدهم أو رجال الدين والفقهاء وحدهم ، وليس كتاب طبقة أو طائفة من الناس ، وإنما هو كتــاب رب الناس للناس جميعاً ، كلٌ يأخذ منه على قدر ما يبلغ جهده ويتــسع لــه نفسه وقلبه " [١] .

وتكرار هذه الآية بعد كل قصة يذكرها القرآن فيها معنى " تكرار للوعد والوعيد ، لأخذ العظة والعبرة ، لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة للشهوات ، ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع " [٢] .

فتكرار جملة الاستفهام جاء فى أعقاب سرد القرآن لكل قصة من قصص الأمم السابقة التى أوردها للاعتبار والعظة والتحذير من مغبــة الكفر ، ولتقرير مضمون ما سبق من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ وتنبيهاً على أن كل قصة منها مستقلة ، بإيجاب الإدكار كافية فى الازدجار ، ومع ذلك لم تقع واحدة فى حيز الاعتبار " [٣] .

---

(١) إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب ٣٠ ط ١ .

(٢) البرهان فى علوم القرآن ٩/٣ .

(٣) تفسير أبى السعود ، بتصرف ١٧٠/٨ .

المبحث الثالث

قصة قوم عاد

تبدأ القصة الثانية – قصة عاد – يقصها الله سبحانه وتعالى للاتعاظ – أيضاً – فيذكر خبر قوم عاد الذين كذبوا نبيهم هوداً عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر : ١٨ – ٢٢) .

والآيات لم يُستدل منها على كيفية التكذيب ، ففى قصة قوم نوح اتهموه بأنه (مجنون وازدجر) ، وكذبوا رسالته ، ولذلك فإن سياق الأحداث وعرض القصص متتابعة دليل على أن عاد – أيضاً – كذبوا نبيهم ، لذلك بدأت الآية بفعل ماضى (كذبت) ، ولم تعطف على (كذبت) فى الآية (٩) لأنها قصة أخرى وفى زمنٍ ماضٍ آخر وإن كانت القصص كلها تتوالى فى مقام الحكاية للاتعاظ وأخذ العبر .

إذاً " القصة مستقلة ولما كان لقوم هود اسم علم وهو (عاد) ذُكروا به لأنه أبلغ فى التعريف " [(١)] .

والاستفهام فى ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ " للتهويل وأيضاً – لغرابة نوع التعذيب " [(٢)] . والمراد انظروا يا أهل قريش كيف كان عذابى وإنذارى لقوم عاد .

---

(١) روح المعانى ٨٤/٢٧ .

(٢) تفسير أبى السعود ١٧٠/٨ .

وإضافة ضمير المخاطب الله جلاله إلى (العذاب) للتهويل من شأنه فإن عذاب الله ما بعده عذاب ، وجاء لفظ (نذر) بدون إضافة ضمير لمراعاة الإيقاع الصوتى فى الفواصل ، ولأن الإنذار يكون بما قدم من أخبار عن الأمم السابقة وما حدث لها من عقاب ، يقصها القرآن ويبلغها الرسول و (كان) للدلالة على تحققه على عادته سبحانه فى أخباره " [١] .

وبعد أن أجمل العذاب بدأت الآيات التالية بالتفصيل فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ .

فقد بين الله كيف كان عذابه بأن أرسل عليهم (ريحاً صرصراً)، وقد ذكر اللفظ فى لسان العرب مادة (صرر) بمعنيين متضادين : شدة البرد وشدة الحر ولها تفسيرات أخرى متعددة ، لكن الأصل فى وضع (صرصر) للريح شديدة البرودة .

والصرر : من (صرَّ) فى أصل وضعه : شدة البرد ، فإذا أريد التوكيد والاستمرار كرر اللفظ فقيل (صرصر) .

وقد قيل إن التفسير (صرصر) بالحارة أنسب لديار العرب ، وقيل (صرصر) يجوز أن يكون من الصَّرة وهى الصيحة الشديدة " [٢]، وبابٌ صرٌّ وصرصرٌ أى له صوت عال ، ولا تناقض لو أن المراد : ريح شديدة البرودة ، لأن بلاد العرب ، رغم جوها الحار معظم السنة ، فإن ذلك لا يمنع بإرادة الله أن تواجه موجة شديدة البرودة فى الشتاء ، فما بالنا لو أن الأمر لله .

---

(١) روح المعانى ٨٧/٢٧ .

(٢) روح المعانى ١١٢/٢٤ .

فالريح التى أرسلها الله كانت شديدة البرودة وتحدث أصواتاً عالية، وقد لاحظ المفسرون أن لفظة (الريح) عندما تأتى مفردة تأتى للشر أما إذا وردت جمعاً فتأتى فى الخير " [(١)] .

وقوله (إنا) للتوكيد على إرسال الريح من عند الله ، ومن المعلوم فى القرآن الكريم أن التعبير بصيغة الجمع تفخيماً وتعظيماً لله جل جلاله ، إذ يؤكد أن الريح أرسلت بإرادته وقصداً لتعذيبهم بها .

وقوله (عليهم) للتوكيد ، ولم يقل (لهم) ، لأن (عليهم) توحى بوقوع العذاب من فوقهم بحيث يشملهم فلا فرصة للنجاة منه .

ووصف اليوم بأنه (نحس) نقيض (سعد) ، من إسناد (نحس) إلى (اليوم) إسناداً مجازياً عقلياً ، علاقته الظرفية ، فإن " نحس اليوم على قوم عاد لا فى ذاته " [(٢)] .

وقوله (مستمر) زيادة فى الدلالة على استمرار تلك الريح العاتية ، فالاستمرار عبر عنه بتكرار اللفظ (صرصر) ووصف اليوم بأنه (مستمر) فإنه " يوم استمر عليهم نحسه ودماره لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوى بالأخروى " [(٣)] .

وللزمخشرى تفسيران : الأول : يكون (مستمر) بمعنى دام حتى أهلكهم ، أو استمر عليهم جميعاً كبيرهم وصغيرهم ،

---

(١) المعانى الثابتة فى الأسلوب القرآنى : د. فتحى أحمد عامر (بتصرف) ٦٦ ، الإسكندرية .

(٢) التحبير فى علم التفسير للسيوطى، تحقيق د. فتحى عبد القادر فريد ٤٣٥، دار المنار.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢٦٥ ، دار زهران .

حتى لم يبق منهم نسمة ، والثانى : يريد (بالمستمر) الشديد المرارة والبشاعة " [١] .

والعذاب دام على قوم عاد حسب ما جاء فى سورة الحاقة آية (٧) لمدة سبع ليالٍ أى ثمانية أيام ، فى قوله تعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾.

قال تعالى : ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ .

لم يقل (فتنزع) ، للترتيب والتعقيب ، فإن الانتزاع بفعل الريح ، ذلك لأن (الفاء) تبطئ الوقت ، فتجعل تتابع الأفعال على مراحل ، زمنية متتالية لكن قوله (تنزع الناس) يعنى أنه أثناء وقوعها تنزع الناس وليس بعد إرسالها . ولكن النص القرآنى بدون (الفاء) فيه معنى السرعة والقسوة والشدة فى الانتزاع ، أى " تقلعهم عن أماكنهم ، حيث اختفوا فى الحفر والشعاب ، يمسك بعضهم ببعض " [٢] .

وفى الآية تشبيه تمثيلى : من تشبه هيئة انتزاع الريح لقوم عاد واقتلاعهم من حيث كانوا " يختبئون فى الحفر والشعاب ، فيتساقطون على الأرض أمواتاً وهم جثث طوال عظام " [٣] ، بهيئة أعجاز النخل أى فروعها المتقطعة .

---

(١) الكشاف ٤٣٦/٤ . وراجع تفسير أبى السعود ١٧٠/٨ .

(٢) راجع تفسير أبى السعود ١٧١/٨، والكشاف ٤٣٦/٤ وفتح القدير ١٢٥/٥ .

(٣) انظر الكشاف ٤٣٦/٤ .

فإن (منقعر) يراد: " المتقطع من أصله يقال قعرت النخلة إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط " [١]، وقوله (أعجاز) لأن عجز الشئ مؤخرته، وآخر شئ تصل إليه الريح العجز فإذا اقتلع هلك الإنسان كله .

فالتشبيه تمثيلى ، من تشبيه محسوس بمحسوس .

وقيل " شبه الكفار فى طول قامتهم حين صرعتهم الريح وطرحتهم على وجوههم بالنخل المتساقط على الأرض التى ليست لها رؤوس وذلك أن الريح قلعت رؤوسهم أولاً ثم كبلتهم على وجوههم فتدق رقابهم ، وقيل : شبهوا بأعجاز النخل ، لأن الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقى أجساداً بلا رؤوس " [٢] .

وقوله (منقعر) صفة لـ (نخل) بلفظ المذكر ، بمعنى أعجاز نخل خاوية وبلاغة وصف أعجاز النخل (بالمنقعر) والتى يراد بها اقتلاعهم من رؤوسهم ، للدلالة على أن كلاً منهما خلا من كل أثر للحياة ، فالمنقعر : الخاوى " وهنا أخرج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به ، وقد اجتمعا فى قلع الريح لهما وهلاكهما إياهما وفى ذلك دلالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة " [٣] .

وقيل : " إن النخل يذكر ويؤنث ، يقال : هذا نخل ، فقال منقعر على التذكير وقوله : أعجاز نخل أى أصول نخل " [٤] .

---

(١) فتح القدير ١٢٥/٥ .

(٢) انظر الكشاف ٤٣٦/٤ وفتح القدير ١٢٥/٥ ومن بلاغة النظم القرآنى ٣٠٥ (بتصرف).

(٣) فى الدراسات القرآنية فى النقد الأدبى ٨٣ ، ١٧٢ تحقيق محمد خلف الله احمد ، محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، ط ٣ مصر .

(٤) الجمان فى تشبيهات القرآن للبغدادى ٢٨١ ، ط بغداد ، والكشاف ٤٣٦/٤ .

والصورة التشبيهية فيها مراعاة لحال المشبه به ووصف دقيق لهيئته ، فإن الريح كما تقلع الرؤوس من أجساد طوال ، وتتركها خاوية من كل حياة ، خالية من الإيمان ، كذلك النخلة ، تقتلع فروعها وتكون خاوية مفرغة لا فائدة ترجى من ورائها بعد اقتلاعها وخوائها .

وهى من الصورة التى تثير فى النفوس الرهبة والخوف من الكفر والعصيان فتسرع إلى التقوى وطلب المغفرة من الله . لكن القلوب التى جبلت على التمرد والكفر فلا علاج لها لأنها أصمت وكذلك كان حال الكفار مع محمد رسول الله . فيتكرر قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .

لأن فى تكرار الاستفهام زيادة تهويل لهذا العذاب ، وفيه معنى التعجب من هؤلاء المنكرين رغم ما علموا من أخبار الأولين .

وقيل : إن " الاستفهام للتهويل والتعجب من أمرهما بعد بيانهما – أى العذاب والنذر – فليس فيه تكرار مع ما تقدم " [١] .

وقيل : فيه تكرار مرتين : " لأن الأول فى الدنيا والثانى فى العقبى ، وقيل الأول لتحذيرهم قبل هلاكهم ، والثانى لتحذير غيرهم بعد هلاكهم " [٢] .

---

(١) تفسير أبى السعود ١٧١/٨ .

(٢) روح المعانى ٢٧٦/٩ . وأسرار التكرار فى القرآن لابن نصر الكرمانى ٨٥ ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ دار الاعتصام .

المبحث الرابع

قصة قوم ثمود

وتأتى القصة الثالثة : قصة ثمود مع النبى صالح عليه السلام ، أرسله الله لهم ليتبعوه ، وليهديهم إلى طريق الحق، لكنهم عصوه وكذبوه ، وأنكروا النبوة عليه ، وتساءلوا لماذا يخصه الله بالنبوة وفيهم من هو أفضل منه وأحق بالنبوة حسب ما تدركه عقولهم وما يظنون ، واتهموه بالكذب والضلال والطمع ومع ذلك لم يبدأ سبحانه بعقابهم ، إنما أمهلهم وأراد أن يمتحن درجة التزامهم بالوعد، فأرسل إليهم ناقة أخرجها من صخرة، وطلب من نبيه أن يخبرهم أن الماء الذى يشربونه سوف يكون قسمة بينهم وبين الناقة ، يوم لهم يوم لها ، ولكنهم دفعوا واحداً من الأشقياء فعقرها ، فصب عليهم ربهم من العذاب فأهلكهم بصيحة قوية .

يقول الله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ * أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر : ٢٣ – ٣٢) .

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ .

(كذبت) – أيضاً – جملة مستأنفة مستقلة تحكى قصة ثمود ، الذين كذبوا الإنذارات التى تتوالى من رب العالمين على لسان نبيه صالح ،

والنذر : مفردها (إنذار) . وقد يراد بالنذر (جمع نذير أى الرسول)، لأنه يكون منذراً لقومه وأهله من العذاب الذى سيقع عليهم وتكذيبهم بأحد الرسل هو تكذيب لجميع الرسل لاتفاقهم على أصول الشرائع " (١).

وإسناد النذر إلى الفعل (كذبت) ، فيه مجازان ، فإذا كان النذر من الإنذار فالمجاز عقلى من إسناد الفعل لغير فاعله ، أى إسناد الكذب للنذر بدلاً من إسنادها لصاحب النذر ، صالحاً عليه السلام .

أما إذا كانت (النذر) من النذير أى : الرسول ، فهو مجاز مرسل علاقته الكلية ، حيث أنهم كذبوا (صالحاً) ، الذى هو واحد من الرسل المنذرين . ذكر كل النذر أى الرسل والمراد : رسول واحد .

قال تعالى : ﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴾ .

والاستفهام ﴿ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ ﴾ إنكارى تعجبى ، فإن قوم ثمود ، ينكرون أن يكون صالحاً رسولاً مكلفاً من الإله الخالق وهو من البشر، ويرفضون اتباعه، ويرون أنهم لو اتبعوه لكانوا فى ضلال وسعر.

يذكر الزمخشرى أن صالحاً " كان يقول : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق ، وسعر : أى نيران ، جمع : سعير ، فعكسوا عليه فقالوا : إن اتبعناك كنا إذن كما تقول . وقيل : السعر : الجنون " (٢) .

والإنكار فى (أبشراً) لأنهم يعتبرون الملك أعلى فى الفضل من البشر فهم ينكرون " أن يتبعوا مثلهم فى الجنسية " (٣) ، ففى الاستفهام

---

(١) تفسير أبى السعود ١٧١/٨ . وروح المعانى ٨٧/٢٧ .

(٢) الكشاف ٤٣٧/٤ .

(٣) المرجع السابق ٤٣٧/٤ .

استهانة وتحقير ، والتقليـــل من شأن البشرية بالنسبة للملائكة ، فلم يقل (أيكون مثل البشر) فإن تعريف البشر تقدير وتعظيم لشأنهم ، وهـــذا غير مراد فى كلام الكفار واعتقادهم .

وقوله (منا واحداً) زيادة فى التعجب يريد : " واحداً من أفنـــاء الناس ليس بأشرفهم وأفضلهم ، ويدل عليه قولهم : أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْـــهِ مِنْ بَيْنِنَا أى : أنزل عليه الوحى من بيننا وفينا مـــن هـــو أحـــق منـــه بالاختيار للنبوة " [١] .

وفى تقديم (منا) للتقليل من شأنه لأنه منهم ولأنهم يعتقـــدون أن النبى لابد أن يكون من رتبة أعلى ، و (واحداً) أى : منفرداً لاتبع له أو واحداً من آحادهم لا من أشرفهم ، وتأخير هذه الصفة عن (منـــا) للتنبيه على أن كلا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع ، ولو قـــدمت عليه لفاتت هذه النكتة " [٢] .

إذاً جاء الإنكار والتعجب فى ثلاث كلمات (أبشراً ، واحداً ، منا) دلت على شدة تعجبهم وإنكارهم فذلك مخالف لتصورهم ، والـــسُعر : كلمة تفيد أكثر من معنى ، فمنه : العذاب ، والعناء ، والشدة ، وقيل هو جمع سعير أى : لهب النار ، والسعر : الجنون " [٣] ، وكلها معانٍ تدور فى فلك واحد ، وجميعها مرادة فى الآية .

وقوله : ﴿ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ جملة مستأنفة مفـــصولة ، لأنه لا يراد إشراكها فى حكم الأولى ، وكأن سائلاً ســـأل ومـــاذا لـــو اتبعتموه ، فيكون الرد (إنا إذاً لفى ضلال مبين) ، أى إن اتباع صالح

---

(١) المرجع السابق ٤/٤٣٧ .

(٢) تفسير أبى السعود ٨/١٧١ وأساليب القصر فى القرآن الكريم ٩٧ د. صباح دراز ط١ الأمانة .

(٣) فتح القدير ٥/١٢٥ ، ١٢٦ . ولسان العرب مادة (سعر) .

ضلال وسعير . والجملة من الخبر الإنكارى المؤكد بـــ (إن واللام) ، وقوله (فى ضلال) مجاز من تشبيه الضلال بشئ يشملهم ، يتواجدون فيه على سبيل الاستعارة المكنية من حذف المشبه به وهو المكان وذكر شئ من صفاته (فى) لأنه لو اعتبر استعارة تبعية فى الحرف (فى) لا يصح أن نقول أن (فى) بدلاً من (على) لأن (على) أيضاً استعارة . فإن (فى) بمعنى الدخول فى الضلال ، والمراد : نكون ضالين عـــن الصواب ، و (سُعر) معطوف على ضلال بحذف حرف الجر لدلالة السياق ، وفيه مبالغة بمعنى : أنهم لو اتبعوه يصبحون كمن فى النار ، وجاء لفظ الفاصلة مناسباً للمعنى تماماً لأن السعر : اللهب الشديد الدائم التسعير لا يهدأ أجيجه فالفاصلة مؤتلفة مع فواصل السورة متماثلة مع الفاصلة التى سبقتها .

قال تعالى : ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾.

(أ ألقى) تكرار للإنكار والتعجب ، واستبعاد أن يُختار من بينهم للنبوة ، وإلقاء الوحى عليه خاصة . " ثم أضـــربوا عـــن الاســـتنكار ، وانتقلوا إلى الجزم بكونه كذاباً أشراً ، أى : شديد البطر والتكبر " [١] .

و " التعبير بـــ (أ ألقى) بدلاً من أنزل قيل : لأنه يتضمن العجلة فى الفعل كما أن التعبير بقوله تعالى (كذاب) على وزن فعال صيغة مبالغة دون كاذب ليُشهدوا الناس على إمعانه فى الكذب " [٢] .

و (الإلقاء) فيه استعارة بالكناية من تشبيه الذكر بشئ يلقـــى أو استعارة تبعية من (ألقى) بمعنى (أتلى عليه) أى خُص بتلاوة الذكر

---

(١) تفسير أبى السعود ١٧١/٨ .

(٢) روح المعانى ٨٨/٢٧ .

عليه من بيننا ولأن الذكر من الله والله حسب تصورهم فى السماء التى فوق الأرض فقط فإن الإلقاء يناسب كون الذكر يلقى من فوقهم .

و" صيغة المبالغة أيضاً فى قوله (أشر) على وزن فَعِلْ أى : بطر ، شديد الكفران بنعمة الله عليه ، فكذب على الله وعلى الناس وادعى النبوة " [١] .

وقوله (بل هو كذاب أشر) جمله مقطوعة ، تأكيداً للإنكار فى الجملة الأولى التى تفيد أن قوم ثمود ينكرون أن يكون الوحى أُنْزِلَ عليه الذكر ، فجاءت الجملة الثانية تأكيداً على أنه كذاب أشر ، ولم يقل (كذاب وأشر) فالعطف يستلزم أن يكون كل صفة موجودة فيه مغايرة للأخرى ، لكن ترك الواو جعل الصفتان ممتزجتان ، يتصف بهما فى وقت واحد لا يمكن الفصل بينهما .

وذكر الضمير (هو) ، للإهانة والتقليل من شأنه ولأن المقام مقام الغيبة . وللتأكيد ، بعد (بل) ، أى : هو بهذا الادعاء الذى يدعيه بأنه رسول الله كذاب متكبر ، شديد البطر .

قال تعالى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ .

والآية مستأنفة من كلام الله لنبيه محمد وفيها التفات على رأى السكاكى لاختلاف صاحب الضمير ، يُستشعر فيها معنى التهديد والوعيد ، فإنهم غداً سوف يعلمون من الكذاب شديد البطر صالح أم الذين كذبوه ، و (السين) " لتقريب مضمون الجملة وتأكيدها " [٢] وفى الآية تعريض بقوم ثمود بأنهم هم الكاذبون شديدو البطر وليس صالحاً وتلويح إلى ما سينالونه جزاء تكذيبهم .

---

(١) روح المعانى ٨٨/٢٧ .

(٢) انظر روح المعانى ٨٨/٢٧ وروح البيان ٢٢٧/٩ .

قيل (غداً) أى : " عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة ، وفى ذلك وعيد للمكذبين ، ووعد للنبى صالح ، ويرفض بعض المفسرين أن يكون المراد بـ (غداً) يوم القيامة ، لقوله تعالى فى الآية التالية ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ ﴾ فهو لمطلق الزمان المستقبل وعبر به لتقريبه " [١] .

ويمكن ملاحظة ما فى الآية من " تشريف الله لنبيه صالحاً حيث نزهه عن صفات الكذب والأشر اللذين نسبوهما إليه " [٢] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ .

والخطاب من الله ، وقوله ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ ﴾ جملة خبرية مؤكدة بـ (إن) والجملة " مستأنفة لبيان ما تقدم إجماله من الوعيد " [٣]، وللدلالة على أنها مرسلة لهدف محدد و(مرسلوا) والمراد (أرسلنا) ، ولكن استعمال اسم الفاعل أكثر ثبوتاً ورسوخاً للخبر ، والتعبير بالمستقبل فى مقام الماضى ، للدلالة على التجدد وتأكيد الحدث أنه هو الله المختص بالإرسال .

والمفعول لأجله (فتنة) أى امتحاناً وابتلاءً لهم للتأكيد ولبيان الغرض من الإرسال والتعريض بغباوة قوم ثمود ، الذين لم يدركوا سبب إرسال الله للناقة .

وقد جُعلت الناقة حجة على المكذبين " فى تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به وطلب الله من عبده ورسوله صالح عليه السلام ، أن يرتقب أى

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ١٧٢/٨ . وروح المعانى ٨٨/٢٧ بتصرف .
(٢) راجع روح البيان ٢٧٧/٩ بتصريف .
(٣) فتح القدير ١٢٦/٥ .

ينتظر ما يؤول إليه أمرهم ، ويصبر عليهم فإن العاقبة لك والنصر فى الدنيا والآخرة " [١] .

وفعلا الأمر (فارتقبهم واصطبر) أمر حقيقى من الله عز وجـــل لنبيه يطلب منه على وجه الإلزام : " انتظرهم وتبصر ما هم صانعون ، واصطبر على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمر الله " [٢] ، وفى (ارتقبهم) معنى : أمهلهم ، بالإضافة إلى الانتظار . وفعلا الأمر كما هو واضح على شئ قد حدث فى الماضى ومع ذلك يصور الأمر كـــأن صــــالحاً حاضراً وذلك لتنويع الأساليب واستحضار الموقف فى ذهن السامع فلم يقل (وأمرته بالارتقاب والصبر) .

فقال تعالى :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المَاءَ قِسْمَةٌ بَينَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ .

ونبأ بمعنى : خَبِّرْ قوم ثمود ، والأمر حقيقى معطوف على ما قبله داخل فى حكمه لأن المخاطب فى الأفعال الثلاثة صالحاً عليه السلام . يريد : وأخبرهم أن الماء مقسم بينهم وبين الناقة بالتناوب، يوم لها ويوم لهم .

والنبأ أى الخبر ، لـــكن شاع استعمال النص القرآنى لفعل الأمر (نبئهم) بدلاً من أخبرهم، فمن المعـــروف أن لفــظ (نبى والأنبياء) من نفس المادة ، ربما ذلك ما أعطى اللفظ قوة فى التأثير تزيد عن قوله (أخبر). وقيل " النبيُ : المخبر عن الله عز وجل ، لأنه أنبأ عنه " [٣].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٦٦ .

(٢) الكشاف ٤/٤٣٨ .

(٣) لسان العرب مادة (نبأ) .

وقوله (الماء قسمة) أى أن الماء قسمة بينهم إما لأن الماء كان قليلاً فلا يطغون على شرابها ، وإما لأن الناقة عظيمة الخلق تنفر منها حيواناتهم فتطغى على شربهم " [١] . وقد يكون لأمر ثالث ، وهـــو أن يمتحن الله سبحانه وتعالى قدرتهم على الالتزام، بدليل قوله (إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً) أى إنا أرسلنا الناقة امتحاناً لهم ، فإن قلة المـــاء أو عظـــم الناقة ليس وارداً لأن الله سبحانه قد أرسلها أصلاً لاختبار قدرتهم على التحمل والالتزام . فإن قوله (مرسلوا الناقة) مضاف ومضاف إليـــه للتـــأكيد على أنها أرسلت بأمره فلم يقـــل (أرسلنا) وذكر اسم الفاعل (مرسل) المتصل بواو الجماعة لتعظيم شأن الإرسال ودليلاً على أنها ناقة مأمورة لها طبيعة خاصة وأرسلت لغرض محدد يعلمه الله سبحانه.

وقوله (بينهم) بإدخال الناقة فى الضمير مع قوم ثمود " تغليبـــاً للعقلاء " [٢] على غيرهم .

وقوله: (محتضر) أى " محضور لهم أو للناقة ، وقيل يحضرون الماء فى نوبتهم واللبن فى نوبتها ، وقيل يمنع من غير صاحبه مجـــاز عن (الحظر) بالظاء ، بمعنى : المنع بعلاقة السببية ، فإنه مسبب عن حضور صاحبه فى نوبته " [٣] .

ومحضـــور[٤] محتضر كلاهمـــا (اســـم مفعـــول) بمعنـــى : يحضرونه للشرب . وإنما آثر استعمال (محتضر) لما فيه من زيـــادة

---

(١) أضواء بلاغية على جزء الذاريات ٧٦ .

(٢) الكشاف ٤/٤٣٨ . وتفسير أبى السعود ٨/١٧٢ .

(٣) روح المعانى للألوسى .

(٤) لسان العرب مادة (حضر) .

تأكيد وقوة ، وتناسب مع فواصل السورة ، التى يراعى فيها الحركة ما قبل الآخر .

و(الشِرْب) صفة لطالبى الشرب، وفى اللفظين (شرب، ومحتضر) إيجاز بالقصر[١] ، فاللفظ يغنى عن جملة بدلاً من القول : (كل من يريد الشرب فالماء محضور للشرب منه) .

قال تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ .

والفاء : استئنافية ، تدل على أن نداء قوم ثمود جاء عقب أمر الله لهم ، وجاء بالجمع للدلالة على مشاركتهم جميعاً فى ارتكاب المعصية ، واجتماعهم على معصية الله .

وتكرار (الفاء) فى (فتعاطى) يدل على الترتيب والتعقيب وسرعة فعلهم فلم ينتظروا ولم يلتزموا بما أمر الله بل عصوا ، وفُتنوا كما ذكر الله سبحانه لنبيه ، فقد أمهلهم الله حتى وقعوا فى الخطأ سريعاً، عندما ملوا ولم تعجبهم هذه القسمة " وعزموا على عقر الناقة ، فنادوا صاحبهم ويقال هو (قدار بن سالف) أحيمر ثمود ، وكان أجرأهم ، فاجترأ على تعاطيه ، مع عِظمه ، غير مكترث به ، فعقر أى أحدث العقر بالناقة ، جوز أن يكون : فتعاطى الناقة فعقرها ، أو فتعاطى السيف فقتلها ، وعبر (بتعاطى) مجازاً عن الاجتراء " [٢] .

---

(١) الإيجاز ضربان : إيجاز بالقصر : وهو تقليل الكلام وتكثير المعانى ويرى ابن الأثير أن التنبه لهذا النوع عسر لأنه يحتاج إلى فضل تأمل . والثانى إيجاز الحذف : وهو ما يكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعين المحذوف ، ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه . انظر المثل السائر لابن الأثير ٧٨/٢ تحقيق محمد محيى الدين ، القاهرة ١٩٣٩/١٣٥٨ .

(٢) الكشاف ٤٣٨/٤ . وروح المعانى ٨٩/٢٧ . والتحبير فى علم التفسير للسيوطى تحقيق عبد القادر فريد (بتصرف) ، دار المنار .

وفى لسان العرب (التعاطى) (مادة : عطا) بمعنى : تناول ما لا يحق ولا يجوز تناوله ، وتعاطينا فعطوته : أى غلبته ، وقال فى قوله تعالى (فتعاطى فعقر) أى فتعاطى الشقى عقر الناقة فبلغ مـــا أراد ، وقيل : بل تعاطيه : جرأته ، " وقيل التعاطى : تناول الشئ بتكلف " [(١)].

إذاً جاء الفعل (فتعاطى) يحمل كل المعانى السابقة ، لذلك كـــان أنسب فى الأداء وأبلغ ، وليس فيه مجاز كما قيل ، وإنما فيـــه إيجـــاز بالحذف بمعنى : فتعاطى الناقة فعقرها ، لأن تعـــاطى يحمـــل معنـــى الاجتراء لكنه أبلغ لاشتماله على أكثر من معنى ، فهـــو لا يـــراد بـــه الاجتراء فقط .

وجاء لفظ الفاصلة (فعقر) غير متصل بضمير لأنه مفهوم مـــن السياق وللدلالة على سرعة الفعل والحسم فيه . فلم يقل (فعقروها) ، ولكى يكون التركيز على فعل العقر أى مخالفة أمر الله ، فالناقة مـــن مخلوقات الله ، وقد أرسلها لمهمة أرادها ، وإنما التجرؤ على ارتكـــاب الفعل هو المطلوب إثباته كذلك لمراعاة الفاصلة .

قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .

هكذا يتكرر الاستفهام التعجبى ، بما يحمله من تهويل وتعظيم لما سيقع على قوم ثمود من عذاب ، فقد أمهلهم الله وأمر نبيه بالاصـــطبار عليهم والتكرار لزيادة التأكيد والتنبيه ، وفيه إشارة للوعد والوعيد .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَـــانُوا كَهَـــشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ .

---

(١) تفسير أبى السعود ١٧٢/٨ .

ففى قوله (أرسلنا صيحة) استعارة مكنية من تـــشبيه الـــصيحة بشئ يرسل .

وقوله (إنا) دائماً يُعبر بصيغة الجمع عن الواحد سبحانه وتعالى تفخيماً وتعظيماً [1] لجلال قدره .

(إنا أرسلنا) جملة قطع واستئناف ، والفعل الماضى جاء بمعنى أمرنا جبريل مؤكداً بـــ (إن ، والضمير : نا) العظمة .

و (صيحة واحدة) قيل إنها صيحة[2] جبريل عليه السلام .

والقيد بـــ (واحدة) للدلالة على هول هذه الصيحة وشدة أثرها ، فتردع النفوس وتحذر المعصية ، لأنه إذا كانت صيحة تهلك قوماً هكذا فكيف لو أنها صيحتان أو أكثر ، و (تنكير) صيحة إعظامـــاً لـــشأنها ولقوتها التى لا تحد بحدود وليس لها قدر معلوم ، فهى صيحة لا مثيل لها كفيلة بأن تهلك بمجرد إطلاقها . وقوله ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ ﴾ صورة تشبيهية تمثيلية من تشبيه هيئة قوم نوح وقد أرســـل علـــيهم الله (صيحة واحدة) والمراد ربما الأمر بإهلاكهم فهلكوا وتقطعوا وأصبحوا أشلاء متناثرة ، بهيئة الهشيم وهو : الشجر يجمع فى الحظيرة بعـــد أن ييبس ورقه ويتكسر ويتحطم ، مـــن تـــشبيه المحـــسوس بالمحـــسوس والصورة تشبيه تمثيلى بليغ فى بيان حالهم بعد أن فـــرض علـــيهم الله العذاب بمعصيتهم لأمره والهشيم[3] مادة (هشم) أى : تحطم وتكسر ،

---

(١) راجع معترك الأقران للسيوطى ١/١٧٣ تصحيح أحمد شمس الدين،دار الكتب العلمية.

(٢) الكشاف ٤/٤٣٨ .

(٣) لسان العرب مادة (هشم) .

ويكون للشجر الذى جف ويبس و (المحتظر)[١] صفة للهـشيم فـى الحظيرة ، من مادة (حظر) أى : جعل بينه وبين من يواجهه حاجزاً ، واحتظر : اتخذ حظيرة ، والمحتظر : المحجوز فى الحظيرة لإطعـام الماشية ، ووجه الشبه هو هيئة الشئ يتحطم ويتكسر ويحجز فى مكان تربى فيه الدواب ليكون طعاماً لها ، فبعد أن كان قيمة تقدر أصـبح لا قيمة له مختلطاً بروث الماشية .

والصورة أبلغ من أى قول فإن هيئة قوم ثمود وهم قتلى على هيئة أشلاءٍ ممزقة يترامى بعضهم فوق بعض وكأن المكان الذىيحتويهم حظيرة يحتظرون فيها كل ذلك للدلالة على ضعفهم وتفاهتهم وضعة شـأنهم ، وتصويرهم هكذا ليكونوا أمثلة لمن كفر وكذب الرسل وعصى ربه .

وعناصر المشبه به مستمدة من البيئة لتكون أبلـغ فـى تـصور الخيال لها .

والقيد فى (المحتظر) له قيمة بلاغية ، لأن المراد ، ليس مجرد إثبات تحطمهم وهلاكهم ، وكونهم أصبحوا كالهشيم ، وإنما أراد الله أن يصور لهم كيف أنهم محتجزون فى الأرض لا يكرمون بالدفن بل كان حظهم من الإهانة والتحقير أن يصبحوا طعاماً للدواب .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

وهكذا تتكرر الآية مع كل حكاية ، للتنبيه والتحذير ، والإدكـار فإن الله قد يسر وسهل القرآن للذكر ، ولكن لا يوجد من يتعظ ..

وقد يخرج التكرار فى الاستفهام (فهل من مدكر) إلـى معنـى الأمر ، أى : ادكروا واتعظوا كما سبق ذكره .

---

(١) لسان العرب مادة (حظر) .

المبحث الخامس

قصة قوم لوط

وتبدأ القصة الرابعة التى يقصها القـرآن عـن الأمـم الـسابقة وماستحقت من عذاب بسبب تكذيب الأنبياء وعصيان أمر الله ، يذكرها الله أملاً فى الاتعاظ والاعتبار .

إنها قصة قوم لوط نبى الله الذى كذَّبوه ، وعصوه عندما نصحهم بالابتعاد عن ارتكاب الفاحشة فى ذكورهم ، حتى إنهم تجـرأوا علـى أضياف نبى الله لوط . فأعماهم الله وأهلكهم ، ونجى لوطاً وابنته ومن آمن معه .

يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّـا أَرْسَـلْنَا عَلَـيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْـزِي مَن شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَـن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَـدْ صَـبَّحَهُم بُكْـرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر : ٣٣ – ٤٠) .

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ .

وفى الآية قطع واستئناف لأن ما سوف يأتى هو حكاية مـستقلة عن قوم لوط ، يريد وكذلك قوم لوط فعلوا إذ كذبوا بالنذر وقوم لوط لم يكن لهم اسم مثل (عاد وثمود) لذلك نسبوا إلى نبى الله لوط .

والنذر سبق ذُكِر المراد بها وهى على معنيين : أن يكون المراد الرسل المنذرين ، أو الإنذارات التى أُنذروا بها قومهم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُـــوطٍ نَّجَّيْنَـــاهُم بِسَحَرٍ ﴾ .

وكذلك يبدأ الله سبحانه حديثه بـــ (إن) والضمير (نا) الفاعلين للتعظيم ، والتفخيم ، والتأكيد على فعل الإرسال الذى تم بأمر الله جملة من الضرب الإنكارى المؤكدة بـــ (إن) وتكرار الضمير (نا) .

وقوله (عليهم) أى جاءهم الهلاك من فوقهم ، ودائماً يـــستعمل حرف الاستعلاء (على) للدلالة على ما يحيق بالإنسان من عقاب نتيجة إثمه فيقال عليه إثم وعليه ذنب ، لكن فى الجزاء الحسن يقال (لـــه) ، وقد يأتى الجار والمجرور (له) فى موضع (عليه) أو العكس فيكون استعارة تبعية فى الحرف .

إذاً (عليهم) بمعنى شمولهم العقاب بإهلاكهم ، فلا يـــستطيعون الإفلات .

و (حاصباً) أى : ريحاً تحصبهم بالحجارة أى ترميهم بها " [١] .

وله معانٍ مختلفة وقد تكون متناقضة ، ويذكر الحاصب[٢] : ريح شديدة تحمل التراب والحصباء، وقيل : ما تناثر من دقائق البَرَد والثلج. وقيل ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾ : أى عذاباً يحصبهم ، أى يـــرميهم بحجارة من سجيل ، وقيل : ريحاً تقلع الحصباء لقوتها .

فلو أن (حاصباً) اسم ريح ، فاللفظ على حقيقتـــه – وإن كـــان المعنى عذاباً يحصبهم ، فاللفظ فيه مجاز بالاستعارة المكنية من تـــشبيه العذاب بالحاصب الذى يرميهم بالحجارة .

---

(١) الكشاف ٤٣٨/٤ .

(٢) لسان العرب مادة (حصب) .

ولا يخفى ما فى اللفظ من الإيجاز بالقصر بدلاً من قوله : فأرسل عليهم ريحاً تحصبهم بالحجارة ، أو عذاباً يحصبهم .

أرسل الله على قوم لوط حاصباً يحصبهم ويهلكهم ، واستثنى آل لوط ، وقوله (نجيناهم) يعنى أن نجاتهم كانت بأمر الله وكانت فى وقت السحر ، أى آخر الليل وقيل السدس الأخير منه وقيل هو اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار ، أى : جاءت نجاتهم فى وقت يكون الناس فيه غافين ، فإذا ما جاءت الريح الحاصب أهلكت الجميع فى غفلة منهم بتوفير عنصر المفاجأة إلا آل لوط كانوا من الناجين ، و (الباء) فى (بسحر) يجوز كونها للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال أى ملتبسين بسحر داخلين فيه " [١] . فالمراد : بسحر أى بقطع من الليل ، وصرف لأنه نكرة ، " وجاء نكرة لأنه معلوم ، وقيل الباء للظرفية بمعنى أى فى سحر " [٢] .

فيقال : " إن السر فى تعذيبهم بالحجارة أنهم حُجِزوا ومُنعوا من اللوطة فلم يمتنعوا بل رموا نطفهم إلى غير محل الحرث فرماهم الله بالحجارة ، وأما انقلاب قراهم فلأنهم قلبوا الحقيقة وعكسوها ، بل تركوا محل الحرث وأتوا الأدبار " [٣] .

و (إلا) استثناء منقطع لأنه مستثنى من الضمير فى (عليهم) وهو للمكذبين من قوم لوط ولا يدخل فيهم آل لوط لأن المراد به من تبعه على دينه " [٤] .

---

(١) روح المعانى ٢٧/٩٠ .
(٢) البرهان ٤/٢٥٦ .
(٣) روح البيان ٩/٢٨٠ .
(٤) روح البيان ٩/٢٨٠ .

و (آل) فلان ، تقال لمن له شأن وقدر ، ودائماً يقال (النبى وآله) أما (أهل) فتطلق على العامة و (آل) تطلق على الخاصة من الناس ممن لهم شأن .

قال تعالى : ﴿ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ .

نعمةً : مفعول لأجله لتأكيد أن النجاة لك يا لوط ولآلك " إنعاماً كائناً منا وهو لنجينا " (١) .

وقوله : (من عندنا) للتأكيد على أن النعمة من عند الله ولا تكون إلا لمن أحبه واجتباه ، لأنه عبد شاكر لذلك قال : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ أى نجزى بنعمتنا من شكر ، و (من) اسم موصول بمعنى (الذى) ، أما (وكذلك) فبمعنى : ومثل ذلك الجزاء العجيب نجزى به من شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة " (٢) .

وتشبيه النجاة من الهلاك بالنعمة ، لأنها تشبه النعم التى ينعمها الله على الإنسان .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ .

و (لقد) توكيد للخبر بإسناد الفعل (أنذر) إلى النبى (لوط) ، وجاء الإخبار بالجملة الفعلية لتقوية الخبر وإثبات أنه لا حجة لهم بعد إنذارهم .

إن الله تعالى قد كلف نبيه لوطاً أن ينذر قومه من قبل أن يبتعدوا عن ارتكاب الفحشاء ويطيعوا الله ، لكنهم تماروا أى شكوا وكذبوه ،

---

(١) تفسير أبى السعود ١٧٣/٨ .

(٢) انظر الكشاف ٤٣٩ . وتفسير أبى السعود ١٧٣/٨ .

" ولم يلتفتوا إلى ذلك فأخذتهم بطشتنا أى عذابنا ، والبطش هو الأخــذ القوى الشديد " [١] .

والتأكيد (باللام وقد) ، فيه معنى القسم ، والضمير فى (أنذرهم) للوط ، ليؤكد سبحانه أن لوطاً أنذرهم ، فلا حجة لهم ، ومع ذلك كذبوه وظلوا على حالهم فى المعصية .

و (البطشة) : السطو والأخذ بالعنف مع السرعة من : بطش ، يبطش بطشاً ، وفى الإفراد مع التأنيث ، تهويل لعقــاب الله وعذابــه ، الذى يكفى منه بطشة واحدة أو سطوة يأخذهم بها بشدة وسرعة ، ومع ذلك فقد شكوا وكذبوا ، وفى إضافة الضمير (نا) إلى البطشة ما يثير الخوف فى نفوسهم لأن البطشة إذا كانت من الخالق فهى بطشة لاتحتمل ولن يفلتوا منها .

و (الفاء) فى (فتماروا) للترتيب والتعقيب دلالة على ســرعة ردهم بالتكذيب على إنذار لوط لهم و (بالنذر) اى كذبوا بالإنذارات ، أو كذبوا بالرسل المنذرين على اعتبار أن لوطاً واحداً من الرسل ، فلم تكن (النذر) موضع نقاش وحوار فيما بينهم لأخذ الرأى ، فقد تماروا جميعاً ، وعارضوا وكذبوا النذير ، وفى ذلك ما يدل على الاســتهزاء بالرسل . فإن جملة (فتماروا بالنذر) فيه معنى الاستخفاف بالإنذارات وبالرسول، لأن مار[٢] الشئ موراً: أى اضطرب وتحرك ، وتمــور : تذهب وتجئ والمماراة : المعارضة ، والمعنى أنهم أسرعوا بالتكــذيب وابتعدوا عن الحق ، لذلك " لم يتعد فعل المور بحرف الوعاء ولم يقــل

---

(١) انظر الكشاف ٤٣٩/٤ . وفتح القدير ١٢٧/٥ . وروح البيان ٢٨٠/٩ .

(٢) أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم ١٩٣ .

(تماروا فى النذر) حتى لا يتبادر إلى الأذهان أنهم شغفوا أنفسهم بهـــا وجعلوها محلاً للجدال وتبادل الفكر فيهـــا " [١] . وقوله: تماروا أبلغ من (كذبوا) ، لأن الأول فيه معنى ســرعة المعارضـــة مـــع التكـــذيب والإصرار من الجميع على ذلك .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَـــذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .

(ولقد) للتوكيد على حدوث فعل المراودة ، و (راوده) [٢] أى : أرادوه على أن يفعل كذا ، وقولهم : راودتُهُ على كذا مراودةً ورواداً أى : أردتُهُ . وفى المراودة معنى الميل عن الحق بالاتفاق ، فالمراودة [٣] : مفاعلة ، من راد يرود إذا جاء وذهب ، كـــأن المعنـــى : خـــادعوه ، واحتالوا عليه ، ليمنحهم فرصة مواقعة ضيفه .

فإن قوم لوط أرادوا منه تمكينهم ممن أتاه من الملائكة لِيَفْجُـــروا بهم كما هو دأبهم " [٤] . فإن الملائكة الذين نزلوا ضيوفاً على لـــوط ، قيل أنهم جاءوا على صورة شباب مُردٍ حسان ، فلما علم قومه بقدومهم أسرعوا إليه ، ولكن لوطاً لم يدخلهم على أضيافه لأنه يعلـــم الغـــرض الذى أتوا من أجله ، فحاولوا اقتحام الباب ، ولوط يدافعهم ، ولما اشتد الحال ، خرج إليهم جبريل عليه السلام فضرب أعيـــنهم بطـــرف جناحيـــه ، فانطمست أى غارت فى وجوههم ، وقيل لم تبـــق لهـــم عيـــون كليـــة

---

(١) لسان العرب مادة (مور) .

(٢) لسان العرب مادة (رود) .

(٣) فتح القدير ١٢٧/٥ .

(٤) راجع (شرح الزمخشرى لفعل المراودة) ، الكشاف ٤٥٤/٢ ، ٤٥٥ .

ورجعوا على أدبارهم ، يتحسسون بالحيطان ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح " [١] .

ومدافعة لوط عن ضيفه ، لرعاية حق الضيف وكذلك كانت مدافعة عن ارتكاب الفحش الذى هو من أكبر الكبائر .

وقوله : (فطمسنا أعينهم) يفيد معنى ذهاب البصر تماماً ، والطمس[٢] ، يراد به استئصال أثر الشئ وتأويل طمس الشئ : ذهابه عن صورته وفرق بين (طمسنا أعينهم) و (طمسنا على أعينهم) فالثانية بمعنى أعميناهم فقط وقد يزول العمى بمجرد رفع الطمس عن العيون ، لأن (على) لا تفيد معنى التغلغل فى الشئ والتأثير فيه بحيث لا يعود إلى ما كان عليه . أما الأولى بدون (على) فأبلغ لأنها تفيد طمس العين كلية .

إن الله قد أنزل عليهم عقابه ، بأن أمر جبريل يطمس أعينهم ، لذلك أسند فعل (طمس) إسناداً مجازياً على سبيل المجاز العقلى لأن المنفذ لأمر الله هو جبريل ، والمسبب الحقيقى هو الله سبحانه ، فقال (فطمسنا) بإسناد الفعل إلى الله سبحانه للتأكيد على أن العقاب بأمر منه، وجبريل عليه السلام وسيلة لتنفيذ إرادة الله فيهم ، أى أزلنا ضوء العين ومحونا صورتها ، فلم يعد لهم عيون . و (الفاء) تفيد سرعة طمس أعينهم بمجرد محاولتهم اقتحام الباب على الضيوف .

و (الفاء) فى فذوقوا للتعقيب ، وفى الكلام التفات من ضمير الغائب فى (أعينهم) إلى ضمير المخاطب فى (فذوقوا) ، و " المراد بالعذاب هنا هو الطمس وكان هذا هو الإنذار " [٣] .

---

(١) الكشاف ٤٣٩/٤ وتفسير الخازن ٢٣/٤ وتفسير ابن كثير بتصرف .
(٢) لسان العرب مادة (طمس) .
(٣) روح المعانى ٩١/٢٧ .

قيل إن الفعل (فذوقوا) على ألسنة الملائكة[١] ، أى من كلام الله بأمر ملائكته أن يرددوه ، ولكن ظاهر الكلام يدل على أنه كلام الله بدليل إسناد (عذاب ونذر) إليه سبحانه وتعالى . وإلا كانوا يقولون (فذوقوا عذابه ونذره) وحذف ياء المخاطب من (نذر) للتهويل ولمراعاة الفاصلة.

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ .

والعذاب لا يُصبح فهو أمر معنوى وضع فى صورة الحى المحسوس على سبيل الاستعارة بالكناية لتجسيد العذاب والتأكيد على أنه شملهم وأحاط بهم .

فقد صبحهم الله تعالى بكرة بعذاب دائم ثابت لا يزول ولا يتحرك عنهم .. إنه عذاب مستقر فيهم لا يبرحهم ، ولو رجعنا إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ نلاحظ أن نجاة آل لوط كانت فى وقت السحر ، ثم صبَّح قومه فى البكور بعذاب لا ينفك عنهم أبداً حتى أتى عليهم جميعاً ، فجاء ذكر إنجاء لوط وآله أولاً، ثم تحدث عن عذاب دائم ومستقر لقومه .

وصبحهم بكرة : أى " فى أول النهار وباكره ، لقوله : مشرقين ، ومصبحين ، تقول : أتيته بكرةً وغدوةً بالتنوين ، إذا أردت التنكير ، وبغيره إذا عرّفت ، وقصدت بكرة نهارك وغدوته " [٢] .

وجاء (بكرةً) ظرف زمان ، يحدد وقت وقوع العذاب على قوم لوط ، وتنكيرها لتشمل أول النهار منذ شروق الشمس .

---

(١) الكشاف ٤٣٩/٤ .

(٢) الكشاف ٤٣٩/٤ . ولسان العرب مادة (بكر) .

لاحظ كيف تكرر (لقد) بمعنى القسم فى الآيات الأربعة متتاليات، فالأخبار تحتاج إلى زيادة توكيد ، ليصدقها أهل قريش ويعلمـــوا أن الله أخذ قوم لوط بما ارتكبوا من فاحشة حرمها الله .

وقوله : صبحهم : تفيد أن الله لم يمهلهم ، وفيه عنصر المفاجأة .

ويتمثل غضب الله من هؤلاء القوم الفاسقين ، بأن تكرر معنـــى العذاب فى الآيات ثلاث مرات فى قوله :

- فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر .
- ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر .
- فذوقوا عذابى ونذر .

وتكرار العذاب ، لتأكيده وللدلالة على أن ما أقدموا عليه من جرم عقابه يبدأ بطمس الأعين ثم عذاب دائم ، ووصف العذاب بأنه (مستقر) استعارة شبه العذاب بشئ يستقر أى : يدوم فيهم لا يتركهم ، على سبيل الاستعارة المكنية .

والمعنى : أنه عذاب " لا يفارقهم حتى يسلموا إلى النـــار وفـــى وصفه بالاستقرار إيماء إلى أن ما قبله من عذاب الطمس ينتهى إليه " [١].

ثم تتكرر الآيتين : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ، وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُـــرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ . والتكرار ورد ليجد السامع عند " كل نبأ منها اتعاظاً وتنبيهاً وأن كلاً من تلك الأنباء مستحق باعتبار يختص بـــه وأن يتنبهوا كيلا يغلبهم السرور والغفلة " [٢] .

فالأولى معطوفة بالفاء ، ومكررة للتأكيد على أن ما نـــالهم مـــن عذاب يستحقونه هو عذاب مخصوص ، عذاب مهين دائم ، لأنهـــم لـــم

---

(١) تفسير أبى السعود ١٧٣/٨ .

(٢) البرهان فى علوم القرآن ٢٠/٣ .

يكتفوا بتكذيب الرسول وإنما أقدموا على ارتكاب الفاحشة والفجور ولم يرتدعوا بل تجرؤا على ضيف لوط من الملائكة .

وجاءت الآية التالية استئنافية تختتم بها قصة قوم لوط كما حـدث فيما سبق من قصص للتنبيه والتحذير ، للتدبر والتفكير فى شأن هؤلاء الذين عصوا ربهم ، فمن الحكمة أن يتعظ كل من يعلم بهم حين يقـرأ القرآن ، ويسارع إلى مغفرة من الله .

وتكرير الآية الفائدة منه : " أن يجدد السامع عند استماع كل نبـأ من أنباء الأولين إدراكاً ، واتعاظاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً ، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مـرات ، لئلا يغلبهم السهو ولا تستولى عليهم الغفلة ، وهكذا حكـم التكريـر ، كقوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ عند كل نعمة عدها الله فـى سورة الرحمن ، وقوله تعالى ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ عند كـل آيـة أوردها فى سورة المرسلات ، وكذلك تكرير الأنباء والقـصص فـى أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مـذكورة غير منسية فى كل أوان " (١) .

والتكرار " فى التنزيل الحكيم ورد للتخويف ، والتهويل والتفجيع، كما أن فيه دليل لقدرته سبحانه وتعالى على تكرير ما يقول فى قوالـب متنوعة ونسق مختلفة مع اتحاد المعنى ، ووقوع الإعجاز ، وذلك غير متأتٍ لغيره " (٢) .

---

(١) الكشاف ٤٣٢/٤ . وانظر روح البيان للبروسوى ٢٨١/٩ .

(٢) المعانى الثابتة فى الأسلوب القرآنى: د. محيى أحمد عامر ٤٤٣ ، ط الإسكندرية .

المبحث السادس

قصة آل فرعون

وينتهى الحديث عن قوم لوط ، لتبدأ قصة آل فرعون ، مع موسى وهارون عليهما السلام ، وقصة فرعون أولى بأن يطلع عليها القرشيون لأنه الملك الذى طغى وادعى الألوهية فارتكب أشنع معصية فى تاريخ الأمم البائدة .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر : ٤١ – ٤٢) .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ .

فكذلك تبدأ قصة آل فرعون بالتوكيد (لقد) الذى يفيد القسم ، للتوكيد على أنهم – أيضاً – قد جاءهم النذر ، وقصة فرعون وآله تكررت فى القرآن وبصيغ مختلفة وأحداث متنوعة ، و (فرعون) وآله فى القرآن كانوا مثالاً للطغيان والقوة والبطش وادعاء الألوهية ، وما ناله من عقاب ، مثال – أيضاً – للاتعاظ والتدبر والتفكير فيما حدث له ولآله، والمعنى : وبالله تعالى لقد جاءهم المنذرون أو الإنذارات، مثلهم مثل من سبقهم .

و (النذر) سبق القول : إنه ربما يكون المراد الإنذارات التى قدمها الأنبياء أو النذير : أى الرسول ذاته الذى ينذر قومه ، والمقصود بالنذر فى هذه القصة (موسى وهارون) عليهما السلام ، وغيرهما ، فقد عرضا على فرعون وملئه ما أنذر به الرسل، الأقوام الأخرى " [1].

---

(١) انظر الكشاف ٤٣٩/٤ . وفتح القدير ١٢٨/٥ بتصرف .

والملاحظ أن بداية كل قصة جاءت بالفعل الماضى (كذبت) فى قصة قوم نوح ، و(عاد) ونبيهم هود ، و(ثمود) ونبيهم صالح، وقوم لوط . وعند حكاية قصة فرعون وآله بدأت بـــ (لقد جاء) والمعنى : وكذلك مثل الأمم السابقة جاءتهم النذر ، ولأن قصة فرعون وهو رأس الكفر العنيد المدعى الألوهية تختلف عن باقى القصص ، لأنه تجرأ حين أرغم الناس أن يعبدوه فقد جاء الخبر مؤكداً بالقسم لتأكيد مجئ النـــذر لآل فرعون .

وتشبيه النذر بكائن حى يجئ لآل فرعون مجاز بالاستعارة المكنية، من حذف المشبه به وذكر شئ من صفاته وهو فعل المجئ .

والاستعارة تفيد المبالغة والتأكيد على أن آل فرعون قد أُنـــذروا على يد موسى وهارون عليهما السلام .

قال تعالى : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

والآية استئناف[1] مبنى على سؤال نشأ فى حكاية مجئ النـــذر ، كأنه قيل فماذا فعل آل فرعون عندما جاءتهم النذر؟ فيأتى الرد : كذبوا بآياتنا كلها ، قيل : هى[2] الآيات التسع ، " وهى ما جاء بـــه الأنبيـــاء عليهم السلام فى عصور مختلفة وقيل إن الآيات هى: اليـــد، والعـــصا، والطوفان، والجراد والقمل والضفادع والدم ، وحل عقدة لسان موسى ، وانفلاق البحر " [3] .

---

(١) " والاستئناف البيانى هو أن تنزل الجملة الأولى منزلة السؤال لكونها مشتملة عليه ومقتضية له فتفصل الثانية عن الأولى كما يفصل الجواب عن السؤال " . د. رفعت إسماعيل السودانى ١٣٠ التركى . طنطا ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

(٢) انظر تفسير أبى السعود ١٧٣/٨ . وروح المعانى ٩١/٢٧ . والكشاف ٤٣٩/٤ .

(٣) انظر روح البيان ٢٨١/٩ . وتفسير القرطبى ١٤٥/١٧ .

وقوله (كلها) من المؤكدات التى تفيد الشمول والإحاطة ، بمعنى أن التكذيب شمل كل الآيات السابق منها واللاحق علـــى يـــد موســـى وهارون عليهما السلام .

وقوله (فأخذناهم) : (الفاء) تعنى أنه ترتب على تكـــذيبهم أن عقب الله ذلك بأخذهم (أخذ عزيز مقتدر) مفعول مطلق مبـــين لنـــوع الفعل ومؤكد له ، والمراد بالضمير فى (أخذناهم) آل فرعون ، أى : أخذناهم بالعذاب أخـــذ غالب فى انتقامه قادر على إهلاكهم لا يعجـــزه شئ " (١) .

وقيل : الفاء فى قوله تعالى (فأخذناهم) للتفريـــع أى قهرنـــاهم لأجل تكذيبهم ، وأخذناهم أخذ عزيز: لا يغالب ، ومقتدر أى : لا يعجزه شئ " (٢) .

والفعل الماضى (أخذناهم) استعارة تبعية بمعنـــى عاقبنـــاهم ، والأخذ أبلغ لما فيه من معنى القوة والقدرة والتحكم ، فإن الله سبحانه لم يأخذهم وإنما عاقبهم بتكذيبهم للرسل ، فعبر بالأخذ ، وهذا الفعل يتكرر كثيراً فى مقام العقاب فى آيات أخرى من القرآن .

والفاصلة القرآنية (مقتدر) متمكنة لأنهـــا أبلغ من قوله (قادر) " لدلالته على أنه قادر متمكن القدرة لا يرده شئ عن اقتـــضاء قدرتـــه ويسمى هذا قوة اللفظ لقوة المعنى " (٣) .

---

(١) فتح القدير ١٢٨/٥ .

(٢) انظر الكشاف ٤٣٩/٤ . وروح المعانى ٩١/٢٧ .

(٣) انظر البرهان ٣٤/٣ .

قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ * إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ * إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر : ٤٣ – ٥٥) .

وتختتم سورة القمر بآيات يوجه فيها سبحانه خطابه إلى أهل مكة، بعد أن ذكر لهم قصص هذه الأمم السابقة التى كفرت وكذبت الرسل فيقول لهم سبحانه وتعالى : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ .

والاستفهام فيه التفات – على رأى السكاكى[١] – حيث يتوجه بخطابه سبحانه إلى أهل مكة وهو استفهام إنكارى تعجبى ، وخرج إلى " معنى النفى : أى ليس كفاركم يا أهل مكة ، أو يا معشر العرب خير من كفار من تقدمكم من الأمم الذين أُهلكوا بسبب كفرهم ، فكيف تطمعون فى السلامة من العذاب وأنتم شر منهم " [٢] .

---

(١) قال السكاكى : الالتفات : غير مختص بالمسند إليه ، ولا بهذا القدر ، بل التكلم والخطاب والغيبة مطلقاً ينقل كل واحد منها إلى الآخر . الإيضاح ٧٧ .
(٢) فتح القدير ١٢٨/٥ .

ولاحظ التعريض وكذلك التوبيخ فى الاستفهام ، فكأنه يسأل المؤمنين من أهل مكة عن الكفار وفى ذلك ما يدل على الاستهزاء بالكفار وتحقيرهم وإبلاغهم بطريق غير مباشر أنهم مثلهم مثل كفار الأمم السابقة ، العذاب واقع عليهم لا محالة ، فالواقع أن الاستفهام عجيب يفيد أكثر من غرض .

و (أولئكم) اسم إشارة[١] الغرض منه تحقيرهم ، أى : " الكفار المعدودين : قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون ، يريد : أن كفاركم مثل أولئك بل شر منهم " [٢] .

وفى الاستفهام ما سماه السكاكى: سوق المعلوم مساق غيره لنكتة، بمعنى : هل كفاركم خير من أولئك السابقين أم أن من كفر منكم وكذب الرسل كان آمناً من عذاب الله ، والاستفهام الثالث فى الآية التالية فى قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ .

أى : لا نغلب ، فالمعلوم أن كفار أهل مكة سوف يحاسبون ويعذبون لأنهم ليسوا أفضل ممن كفروا من الأمم السابقة .

وقوله ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ إيجاز قِصَر والمعنى : إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب الله فى شئ من كتب الأنبياء ، وفى ذلك تبكيت لهم " [٣] .

ثم أضرب عن هذا التبكيت لهم بوجه آخر فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ وفيه التفات من الخطاب فى (أكفاركم) إلى

---

(١) راجع (أغراض التعريف بالإشارة) . بغية الإيضاح ١٠٤ .

(٢) انظر الكشاف ٤/٤٤٠ .

(٣) انظر فتح القدير ٥/١٢٨ .

الغيبة فى (يقولون) إلى التكلم (نحن) . وهذا الالتفات فيه " إعراض عنهم وإسقاط لهم عن رتبة الخطاب وكأنه يحكى قبائحهم لغيرهم " [١] كما أن فيه تنبيه ولفت وتأكيد إلى أن قولهم على لسانهم وليس حكاية مروية عنهم .

عبر بلفظ (جميع) بمعنى : جماعة أمرنا مجتمع ، وأفرد (منتصر) بدلاً من (منتصرون) " اعتباراً بلفظ جميع " [٢] ، ولمراعاة الفاصلة لكى لا يختلف رويها عن فواصل السورة، وكذلك فإن قوله (نحن جميع) فيه معنى " الثقة الكبيرة بقوتهم " [٣] ووحدتهم، وأنه لا يقدر عليهم أحد حيث أنهم جماعة أمرها مجتمع لا تغلب ولا تهزم ولكن الله قرر هزيمتهم .

ثم تأتى الآية التالية رداً على قول كفار مكة إذ يقول تعالى :

﴿ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

" وهذه الآية من دلائل إعجاز القرآن فهى من الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة وهى لا تكون إلا من عند علام الغيوب ، وقد نزلت قبل فرض الجهاد . وكان ذلك فى موقعة بدر " [٤] .

والفعل (سيهزم) مبنى للمجهول ، والسين منحت الفعل تأكيداً لحصوله فى المستقبل ، ومجيئه هكذا ، لأن الآية السابقة فعلها مضارع (يقولون) لم يقل (أم قالوا) لذلك جاء الكلام بعد ذلك فى المستقبل .

---

(١) روح البيان ٢٨٠/٩ .

(٢) المرجع السابق ١٢٨/٥ .

(٣) انظر روح المعانى ٩٢/٢٧ .

(٤) راجع تفسير الباقلانى للآية . إعجاز القرآن ٤٨ . وانظر تفسير البيضاوى ٢١٨/٤ .

و (الجمع) رد على قولهم (نحن جميع) ، فجاء الرد عليهم من جنس قولهم ، وفى ذلك مشاكلة .

و (الواو) فى (ويولون) للوصل ، لأن الغرض إشراك الجملة الثانية فى حكم الأولى ، للاتفاق فى الخبرية . والمعنى : " سيهزم جمع كفار مكة ، أو كفار العرب على العموم .

والمراد بالدبر الجنس ، وهو فى معنى الإدبار ، وقد هـــزمهم الله يوم بدر وولوا الأدبار ، وقُتل رؤساء الشرك وأساطين الكفر " [١] .

وقوله (يولون الدبر) كناية عن الانهزام والإدبار أى الهروب .

" والدبر : نقيض القبل ، ودبر كل شئ عقبه ومؤخره ، وجمعهـــا أدبار " [٢] .

وقيل : معناها (الأدبار) بالجمع ، وإنما أفرد (الدبر) لقـــولهم (نحن جميع) فكأنهم عند الانهزام والتراجع يمثلون جسداً واحداً ، كذلك لتتناسب الفاصلة مع الفواصل الأخرى ، فيحدث هذا التناغم والتناســـق الصوتى الصادر من تقارب الفواصل .

قال تعالى : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ .

وقوله (بل) يعنى أنه لن يكون عقابهم فى الدنيا فقط عن طريق انهزامهم ، " وليس هذا العذاب الكائن فى الدنيا بالقتل والأسر والقهـــر هو تمام ما وُعدوا به من العذاب ، وإنما هو مقدمة من مقدماته وطليعة من طلائعه " [٣] .

---

(١) فتح القدير ١٢٩/٥ .

(٢) لسان العرب مادة (دبر) .

(٣) فتح القدير ١٢٩/٥ . وانظر تفسير أبى السعود ١٧٤/٨ .

لذلك يقول (الساعة موعدهم) فالساعة : كناية عن يوم القيامة ، لأنها فى ساعة معلومة عند الله ، وقوله (موعدهم) أى موعودون للقاء ربهم ليفرض عليهم العذاب بما كفروا وكذبوا . وذكر (الساعة) الثانية من وضع المظهر موضع المضمر[١] ، فإن تكرار الساعة بدلاً من ذكر ضميرها ، " للتهويل من شأنها ، وليزرع الخوف فى نفوسهم " [٢] .

وقوله (والساعة أدهى وأمر) أدهى أى : أشد وأفظع . والداهية الأمر المنكر الذى لا يُهتدى لدوائه " [٣] ، والمعنى : وعذاب الساعة أعظم فى الغد وأقطع .

ووصف الساعة بأنها أدهى ، تهويل فى أمرها ، مما يدخل الخوف والرعب فى نفوس الكفار . وقوله (وأمر) من تشبيه الساعة بالشئ مذاقه مر على سبيل الاستعارة المكنية من حذف المشبه به وذكر شئ من صفاته وهى المرارة . والمعنى أن عذاب الآخرة أشد مرارة من عذاب الدنيا .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ .

و (المجرمين) صفة للكفار ، مؤكدة (بإن) جملة خبرية طلبية، تؤكد أنهم " فى هلاك ونيران ، أو فى ضلال عن الحق فى الدنيا ، ونيران فى الآخرة " [٤] .

وسبق ختم فاصلة الآية (٢٤) بقولهم على لسان ثمود ﴿ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ والفرق أن قوم ثمود يظنون أنهم لو صدقوا

---

(١) راجع (وضع المظهر موضع المضمر) بغية الإيضاح .
(٢) انظر روح المعانى ٩٣/٢٧ . وروح البيان ٢٨٣/٩ .
(٣) الكشاف ٤٤٠/٤ ، وانظر روح المعانى ٩٣/٢٧ .
(٤) الكشاف ٤٤٠/٤ .

الرسول واتبعوه لعاشوا فى ضلال وسعر فى الدنيا ، أما قول الحـــق : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ يحتمل المعنيين فى الدنيا والآخرة .

وقوله (فى ضلال) – (فى) ظرف مكان – استعارة مكنية ، من تشبيه المعنوى بالمحسوس من تشبيه الضلال بالمكان يحتوى المجرمين ويشملهم ويحيط بهم ، بمعنى : إنهم لمجرمون يضلون عــن الحــق ، وتحرقهم النيران عن آخرهم .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ .

والآية مستأنفة مفصولة لأنها بيان وتفسير لما سبقها ، فحين قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ جاء قوله بعد ذلك تفسيراً لهذا الضلال والسعر ، يوضح كيف يكونون فى (الــسعر) ، فالآيــة تصوير لحال هؤلاء المجرمين بكفرهم وعنادهم وهم يسحبون فى نـــار جهنم ، وما يحمله الفعل (يسحبون) من معانى الذل والهوان، وقوله " (يوم) ظرف منتصب على ما قبله أى: كائنون فى ضلال وسعر يوم يسحبون، أو بقول مقدر بعده أى : يوم يسحبون يقال لهم (ذوقوا مــس سقر) "[(١)] فهم حين يجرونهم إلى النار على وجوههم لن تنفعهم قوتهم، ولا جبروتهم . وقوله : (يسحبون فى النار على وجوههم) فيه كنايــة عن صفة الإذلال والخذلان . فبالإضافة لذل السحب فى النار ، ذل آخر بالسحب على الوجوه ، والوجه إذا استذل فيه إهدار للكرامة ولا يمنـــع ذلك من إرادة المعنى الحقيقى أى يسحبون على الوجه لإذلالهم ، وقـــد يراد بـــ (يسحبون) تشبيههم بالماشية التى تسحب ، على سبيل الاستعارة

---

(١) فتح القدير ١٢٩/٥ .

المكنية، بحذف المشبه به وذكر شئ من صفاته ، وهذا السحب لا يكون للمرعى ولا للحظائر ، ولكن للنار والسحب يكون على الوجوه لتــزداد صورتهم سوءً ، وإذلالاً ، كما ورد الفعل مبنياً للمجهول ليزداد الترهيب والوعيد وإعمال الفكر فيمن يسحبهم فترتكز الصورة فى الأذهان .

وقوله (ذوقوا مس سقر) جملة مفصولة لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً، ولو عطفت لقال (ويذوقون ...)،ولكن الغرض إهانتهم وإذلالهم وقهرهم ، لذلك جاء فعل الأمر متضمناً كل هــذه المعــانى البلاغيــة، بالإضافة إلى الإشعار بهول نار جهنم وشدتها، إذ قال (ذوقوا) ولم يقل (أشعروا أو حسوا) . ليكون هذا جزاءهم يوم القيامة لأن الإذاقة بــالفم أكثر تأثيراً وأشد إلاماً ودائماً القرآن يعبر عن تأثير النار والإحــساس بألمها بالإذاقة ، كما أن فى الفعل استعارة مكنية من تشبيه نار جهــنم بشئ له طعم يتذوقه الكفار ، فجعل إصابتهم بالنار محــسوسة بحاســة التذوق ، ليكون أكثر إيلاماً وبشاعة ، فإن المس بالتذوق يكون أشد فى جهنم التى تلفحهم بحــر نارها فى قوله (مس سقر) فــالمس يكــون بظاهر البشرة ، وسقر : اسم علم لجهنم . يقول لهم : ذوقوا نار جهنم ، " لأن النار إذا أصابتهم بحرها ولفحتهم بإلامها، فكأنها تمسهم مساً بذلك، كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذى ويؤلم " (١) .

ولأن مجرد " (المس) سبب للإيلام ، ففيه مجاز مرسل علاقتــه السببية " (٢) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

---

(١) الكشاف ٤٤٠/٤ .

(٢) انظر روح المعانى ٩٣/٢٧ .

أُكد الجملة بـــ (إن) المتصلة بالضمير (نا) نون العظمة وتقديم المفعول (كل) للتوكيد فهى خبرية من الضرب الإنكارى، وقوله (بقدر) أى بتقدير . والمعنى : " خلقنا كل شئ مقدراً محكماً مرتباً على حسب مااقتضته الحكمة ، أو مقدراً مكتوباً فى اللوح معلوماً قبل كونه ، قــد علمنا حاله وزمانه " (١) .

وقوله (خلقناه) باتصال الضمير بالفعل زيادة فى التأكيد على أنه صاحب الخلق وأنه عالم بما خلق وقدر ، فكل شئ عنده محسوب وقوله (بقدر) أى بكل دقة وحساب لا يختل سواء بالنقص أو الزيادة .

وقوله (كل) يفيد الشمول والإحاطة، أى : ما من شئ إلا وقدره.

وتنكير (شئ) يفيد تعميمه وشموله لكل شئ صغيراً أو كبيراً .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ .

لما أخبرنا الله سبحانه عن نفاذ مشيئته فى خلقه إذ خلق كل شــئ بقدر معلوم محسوب ، كذلك يخبرنا عن نفاذ قدره فينا ، فأمره لا يكون إلا مرة واحدة فيتحقق أسرع من لمح البصر .

فجاء أسلوب القصر بالنفى والاستثناء بطريق (ما وإلا) حيــث قصر أمره سبحانه على كونه مرة واحدة يتحقق بعدها كلمح البــصر ، من قصر الموصوف على الصفة . وهو " وصف لقيام الساعة ، فى يوم يكون خارقاً فى بغتته وسرعته ، من ضربهم المثل فى ســرعة الــشئ وانقضائه بأنه لمح البصر " (٢) .

---

(١) الكشاف ٤/٤٤٠ .

(٢) أساليب القصر فى القرآن الكريم وأسرارها البلاغية . بتصرف ١٦٨ صباح عبيد دراز ، ط ١ الأمانة .

وتشبيه الأمر بلمح البصر فى السرعة ، دليل قدرة الخالق علـــى نفـــاذ أمـــره فى خلقـــه ، فإنه إذا أراد شيئاً يقـــول له (كن فيكون) ، " والتشبيه فيه تراخ لدخول الباء فى (بالبصر) " [١] ، وهذا التـــشبيه يلائم افتتاح السورة الكريمة بقوله تعالى : (اقتربت الساعة) واللمح[٢] النظر على العجلة والسرعة، ولمحه وألمحه : إذا أبصره بنظر خفيف . والاسم : اللمحة ويأتى (اللمع) بمعنى لمعان البرق . أى : وما أمرنا لشئ نريد تكوينه إلا كلمة واحدة لا تثنى " [٣] .

إن بناء القصر فى الآية على التشبيه أغنى فى الدلالة والخصوبة فى الفكرة وتوليد الظلال ، ويلاحظ فى التشبيه أن المنفى هو المقابل لما دل عليه المشبه به " [٤] .

وهكذا يتضح أن الآيات السابقة ، تحمل الوعد والوعيد بكفار مكة، ولمن يأتى بعدهم ، بأن الله مهلكهم إذا أمر وقدر، " وذلك على الله يسير لأن قضاءه فى خلقه أسرع من لمح البصر " [٥] .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

بدأت الآية بالتوكيد القسمى (لقد) ، والأشـــياع : الأشـــباه ، أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السابقة ، وقيل أتبـــاعكم وأعـــوانكم " [٦] . وقيل : " القوم الذين يجتمعون على الأمر ، ويكـــون أمـــرهم واحـــد ،

---

(١) من بلاغة النظم القرآنى ٣٠٧ .

(٢) انظر لسان العرب مادة (لمح) .

(٣) القرآن والصورة البيانية ١١١ .

(٤) أساليب القصر فى القرآن ١٦٨ .

(٥) روح البيان ٢٨٤/٩ .

(٦) انظر الكشاف ٤٤١/٤ . وفتح القدير ١٢٩/٥ .

والشيع الفرق التى تختلف فيما بينها وتتفرق فى أمرها " [١] . وهذا هو المراد أى أشباهم الذين تفرقوا ولم يتفقوا على أمر فقد كانوا كفاراً كل حسب طريقته فى الكفر ولكنهم جميعاً يشبهون بعضهم البعض فى مبدأ الكفر بالإله الواحد .

وأهلكنا : أفنينا .

ثم يأتى الاستفهام الذى تكرر أكثر من مرة (فهل من مدكر) أى فهل من متذكر ومتعظ ، بعد هذا الوعيد من الله ليتأكد أنه الحق ، فيحذر عقاب الله ويتجنبه لكى لا يصيبه ما أصاب الأمم السابقة . فالاستفهام إما يفيد التنبيه والتحذير ، أو يفيد النفى أى لا يوجد من يدكر .

وإذا كان المراد من الاستفهام إفادة النفى ، فإن ذلك ادعى لزيادة التذكير والتوكيد لذلك يقول بعد ذلك : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾.
والواو استئنافية وقوله (كل شئ) تأكيد باشتمال وإحاطة الزبر – أى : الأسفار – كل ما فعلته الأمم التى أهلكها الله ، فإن كل شئ حتى الضئيلة من أفعالهم ، مكتوبة فى اللوح المحفوظ صغيرة وكبيرة ، جليلة وحقيرة ، خير الأفعال وشرها .

والزبر : الكتب أو الأسفار ، مفردها (زبور) .

ثم جاء قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ .

ومستطر أى : مسطور ، والأول أبلغ لما فيه من معنى التتابع والتوالى . والآية ظاهرها العطف بالواو ولكن معناها : بدل من الآية السابقة ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ وربما تفسير لقوله (كل شئ)، فالآيتان تفيدان نفس المعنى، وإن كان فى الأولى مجمل والثانية مفصل.

---

(١) لسان العرب مادة (شيع) .

وتختتم السورة بآيتين ، فيهما وعد صادق ، وجزاء حسن للمتقين فبعد أن ذكر عقاب الكفار وما سوف يلاقونه من عذاب فى نار جهـــنم وقد نبههم الحق بأن كل ما فعلوه وقالوه محفوظ إلى يــوم يبعثــون ... التفت إلى المتقين فقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـــاتٍ وَنَهَـــرٍ ﴾ . وجـــئ بالجملة اسمية خبرية للدلالة على أن جزاءهم الذى يصيرون إليه متحقق يقيناً أو أن يقدر متعلق الجار والمجرور بمعنى المستقبل ، أو أنهم فيها الآن على إطلاق (جنات ونهر) على ما توجبه التقوى علـــى ســـبيل المجاز المرسل بإطلاق اسم المسبب[١] على السبب .

أو قد يكون الكلام من باب الاستعارة ، والقرينة تعلـــق الوعـــد بالمستقبل ، فالاستعارة فى متعلق الجار والمجرور ، حيث شبه الإقامة فى (جنات) و (نهر) والاستمرار والدوام فى المستقبل بالاســـتقرار والإقامة فى الماضى بجامع تحقق الوقوع فى كل على سبيل الاستعارة التبعية لتحقيق غرض بلاغى وهو تحقق الوقوع للأمر فى المستقبل .

والخبر من الضرب الطلبى المؤكد بـــ (إن) للتأكيـــد علـــى أن المتقين هم الفائزون بالجنة ، فيأتى الخبر للدلالة علـــى أنهـــم ســـوف يخلدون فى جنات ونهر وقوله (فى جنات ونهر) يـــشعر الـــسامع أن الخـــبر متحـــقق وثابت ودائم ، ففى ذلك بيان ثواب المؤمنين المتقـــين بعـــد الإشارة إلى عقاب الكافرين ، فالمتقون سعداء فى الآخرة وهـــذا أمر واقع لزيادة الترغيب فى عمـــل الصالحات ، وجنات : جمع جنة ،

---

(١) " وعلاقة المسببية هى أن يكون المعنى الأصلى للفظ مسبباً عن المعنى المراد . والداعى إليها استشراف وتطلع إلى المسبب ولبيان أنه المقصود من السبب " شروح التلخيص ٣٩/٣٨/٣ ، ونظرات فى البيان : د. محمد عبد الرحمن الكردى ٢٢٨ – ٢٣٠ ، ط ثانية ١٩٨٣ .

" ونَهَرَ[١] : اسم جنس يشمل الإفراد والجمع " ، أى أنهـــار وجنـــات ، وتنكيرهما لتعظيم شأنهما فالجنات ليست كالجنات فى الدنيا والنهر ليست كالنهر فى الدنيا . والمراد : " أن المتقين فى بساتين مختلفـــة وجنـــات متنوعة وأنهار متدفقة " [٢] . و " عبر بالمفرد فلم يقل أنهاراً مراعـــاة للفواصل ، والجرس الموسيقى بين الكلمات وأواخر الآيات " [٣] .

وإذا جاز أن يكون المتقون فى جنات ينعمون ويـــسعدون ، فـــإن عطف (نهر) بمعنى فى نَهَر : قد يكون استعارة تبعية فى الحرف إذا كان المراد (عند) النهر ، وقد يراد به الحقيقة ، أى فى نهـــر الجنـــة يسبحون ، وقيل : " إن نهر : هو السعة والضياء من النهار " [٤] فيكون (نهر) بمعنى (النهار) كناية عما يكون فيه المتقون من سعة وضياء.

ثم تأتى الآية الأخيرة وصفاً لحال المتقين فى الجنات وهـــم ينعمـــون بالحياة الأبدية فيقول تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

فتتحقق أعظم جائزة يحصل عليها المتقون ، إنهم فى مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم ، و (مقعد صدق) كناية عن الجنـــة ، أو " عـــن المكان المرضى " [٥] .

وقيل " مقعد لا كذب فيه لأن الله صادق فمن وصل إليـــه امتنـــع عليه الكذب فهو فى مقعد صادق " [٦] . وقوله (عند مليك) كناية عن

---

(١) لسان العرب مادة (نهر) .
(٢) فتح القدير ١٢٩/٥ .
(٣) تفسير أبى السعود ١٧٥/٨ .
(٤) الكشاف ٤٤٢/٤ .
(٥) الكشاف ٤٤٢/٤ .
(٦) تفسير الخازن ٢٨١/٦ .

قرب المنزلة والكرامة وشرف المنزلة " [١] . وقوله : مقتـــدر : " أى قادر لا يعجزه شئ ، وقيل مقربين عند مليك أمره فى الملك والاقتـــدار أعظم شئ أى وهو تحت ملكه وقدرته فأى منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها " [٢] .

وقوله (مليك) أى الله عز وجل، وجاء فى لسان العرب " المَلْكُ، والمَلِكُ والمليكُ والمالِكُ : ذو الملك ، وجاك المَلْكُ مقصور من مالكٍ أو مليكٍ وجمع الملك ملوك ، وجمع المليك مُلكاء . وقال بعضهم : المَلك والمليكُ لله وغيره . والمَلْكُ لغير الله ، والمِلكُ من ملوك الأرض " [٣] .

وقال تعالى : " (فى مقعد صدق) ، ولم يقل (مجلس صدق) إذ لا زوال عنه ، إذ إن (القاف والعين والدال) تدل على اللبث والبقـــاء على حالة مثال قوله تعالى (مقاعد للقتال) (سورة آل عمـــران آيـــة ١٢١) ، فإن الثبات هوالمقصود ،أما (الجيم واللام والـــسين) فهـــى للحركة لقوله تعالى (وإذا قيل تفسحوا فى المجالس فافسحوا) (سورة المجادلة آية ١١) إشـــارة إلى أنه يجلس فيه زماناً يسيراً فهـــو لـــيس بمقعد " [٤] .

ومقتدر : أى قادر ، بزيادة ما فى اللفظ من تمكن وقـــدرة تفـــوق قدرة البشر ، وفيه معنى الاختصاص بهذا الاقتدار لا أحد غيـــر يقـــدر كاقتداره .

---

(١) انظر فتح القدير ١٢٩/٥ .
(٢) تفسير الخازن ٢٨١/٦ .
(٣) لسان العرب مادة (مالك) .
(٤) البرهان للزركشى ٨٤/٤ .

" فالاقتدار على الشئ : القدرة عليه ، وقوله (عند مليك مقتدر) أى قادر ، والقَدْرُ : الغنى اليسار ، وهو من ذلك لأنه كله قوة " [(١)] .

وهكذا ختمت سورة القمر ، بآيتين هدية للمتقين يفرحون بهما وينعمون برضا الله عليهم وقد علموا سخطه على الكافرين .. وقد جاءت الآيات متراصة متلاحمة يمسك بعضها بتلابيب بعض لما فيها من جمال الإيقاع فى انتظام ألفاظها وتآلف فواصلها ، التى الْتُزم فيها حرف الراء وما قبله متحرك فعرف من قرأها كيف يأتى النظم القرآنى معجزاً بألفاظه ومعجزاً فى معانيه .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : " من قرأ سورة القمر فى كل غبٍ[(٢)] بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر " [(٣)] .

---

(١) لسان العرب مادة (قدر) .

(٢) والغب : ان ترد الماء يوماً وتدعه يوماً ، والغب : فى الزيارة ، والغب : فى كل أسبوع . الكشاف ٤/٤٤٢ . ولسان العرب مادة (غيب) .

(٣) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أُبى بن كعب . الكشاف ٤/٤٤٢ . وتفسير أبى السعود ٨/١٧٥ .

الخاتمة

إن النظم القرآنى يظل هو السبيل لكل قاصد يريد التعرف على أسرار اللغة العربية ، وإمكاناتها التى لا تحد بحدود ، فإنه النظم الذى يعلو ولا يعلى عليه .

وسورة القمر جزء من هذا النظم المعجز ، جاءت محاولة دراستها وتحليلها عملاً شاقاً ، احتاج جهداً ووقتاً ، ومع ذلك فلا أحد يطمع بأكثر ولا أفضل من مطالعة كتاب الله ، وتدارس آياته ، وقد تأكد بالتجربة أن البحث البلاغى هو الأقدر على تحليل معانى القرآن واستجلاء أسراره ، فكثير من الأساليب عندما تُفسر بلاغياً ويتعمق المحلل فى تفاصيلها من حروف وألفاظ وجمل ، يخرج بتصور مقنع ، ويكون قادراً على إيجاد العلاقات والروابط ، التى يستدل من خلالها على أن النص القرآنى أسلوبه معجز ، بحيث تمثل كل سورة كياناً متكاملاً ، انتظمت فيه الآيات وتتابعت المعانى فى نظام معجز بديع .

والسورة كما هو معلوم تمتاز بقصر آياتها لكونها مكية ، كما تبين كثرة ما جاء فيها من أساليب التحذير والوعيد ، لتكون حجة على الكافرين ، وجاءت السورة على نظام أسلوبى منتظم ، فقد نتج عن الدراسة ما يلى :

- " الفاصلة القرآنية جاءت من المتماثل التى تتقارب فى الوزن وتتماثل فى حروف الروى " (١) ، وقد ظهر مدى تآلفها وتمكنها فى

---

(١) الفاصلة المتماثلة : هى التى تتقارب فى الوزن وتتماثل فى حروف الروى وتسمى كذلك المتجانسة أو ذات المناسبة التامة (انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٧٣/١ ، ٧٤ ، والنكت للرمانى ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز ٩٠ ، والفوائد لابن القيم الجوزية ٨٨ ، والطراز ١٨/٣ ، ومن بلاغة القرآن : د. أحمد بدوى ٨٨ نهضة مصر ط ٣ ١٩٥٠ .

موضعها ، وأنها أفادت المعنى ، وبها انتظم إيقاع الكلام ، وانسجم النظم فى الآيات .

- بنيت السورة على مقدمة عن اقتراب يوم القيامة وتكذيب أهل مكة لنبيهم رغم ما رأوا من آيات ، وتحذير من مغبة كفرهم . ثم تتتابع عرض أنباء الأمم السابقة فى أسلوب منتظم ، يبدأ كل قصة بالفعل الماضى (كذبت) ، وعند القصة الأخيرة يترك الفعل ليأتى الخبر بأسلوب قسمى (ولقد جاء آل فرعون) ، ثم ينتقل إلى خاتمة السورة التى ركزت على تبكيت أهل مكة وتحذيرهم أن كفرهم وتكذيبهم لرسولهم وعنادهم ، سوف يكون عاقبته جهنم وبئس المصير ، ووعد من الله للمتقين بأنهم الفائزون بالجنة . هكذا جاءت السورة بناءً مترابطاً متراصاً آية بجوار أختها .
- تكرار الاستفهام (فكيف كان عذابى ونذر) وقوله (فهل من مدكر) جاء ينبه الغافل ويحذر الكافر .
- تكرار الجملة الخبرية القسمية (ولقد يسرنا القرآن للذكر) أكثر من مرة لإبطال الحجة وإثبات الغفلة والتقصير .
- جاءت الصورة الاستعارية – من مكنية وأصلية وتبعية – مؤثرة ، وموضحة للمعنى، مثل قوله (ففتحنا أبواب السماء ، تجرى بأعيننا، إنا لفى ضلال ، فذوقوا عذابى ونذر) إلى غير ذلك من استعارات أبدعها النظم القرآنى .
- جاء التشبيه فى مواقعه من الكلام ليؤدى دوره من التوضيح والإبانة ورسم الصور فى الخيال ، منه التشبيه المفرد ، ومعظمه تشبيهات تمثيلية ومقيدة واستعملت فيها الأداة (الكاف وكأن) من المحسوس بالمحسوس يصف الكفار من الأمم السابقة بقوله تعالى : (كأنهم

جراد منتشر ، كأنهم أعجاز نخل ، فكانوا كهشيم المحتظر) وغير ذلك من تشبيهات ، تردع من يعتبر .

- أما الأمر فقد ورد بمعانى التحذير والوعيد مثل قولـــه : (فـــذوقوا عذابى ونذر) فقد تكرر هذا الأسلوب أكثـــر مـــن مـــرة ، تأكيـــداً وتحذيراً وردعاً .
- ورد التأكيد بالأسلوب القسمى (لقد) كثيراً وخاصة فى قصة لوط مع قومه لما قاموا به من فعل شنيع ، جاء القسم مؤكداً لعقـــاب الله الذى شملهم .
- اعتمد الربط بين الجمل على (الواو ، والفاء) فجاءت فى مواقعها، كما جاء الفصل لأغراض كثيرة وتأكد أن للفصل والوصل موقـــع دقيق يتضح من تفسير المعانى وترتيبها .
- أسلوب القصر جاء فى آية واحدة فى قوله: (وما أمرنا إلا واحدة).
- أما فنون البديع فنادرة ، منها المجانسة وأكثرها فى الحـــرف مثـــل قوله تعالى : (نحس مستمر ، تنزع ، أعجـــاز ، عـــذابى ونـــذر، فتعاطى فعقر) نلاحظ تكرار حرف السين ، والـــزاى ، والـــذال ، والعين ، وما أحدثه من إيقاع متناغم .
- ومن بديع النظم القرآنى ما جاء من تعريف بالضمائر ، وتنكيـــر ، ووضع المظهر موضع المضمر أو العكس ، والذكر والحذف ، كلٌ جاء لغرض بلاغىتم توضيحه .

وبعد ، فإن من يقرأ السورة مرات ومرات يلحظ هـــذا الـــتلاؤم والانسجام الكامن فى ترتيب ألفاظها وتتابع آياتها ، إنه ذلـــك الإيقـــاع الداخلى الذى ينتظم به الكلام ويعلو قدره ، لأنه ذكر معجز مـــن رب الأرباب مسبب الأسباب ، ومصلح النفوس ومربى الألباب .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

١ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ٣ ، ٤ دار التراث القاهرة.

٢ - إرشاد العقل السليم إلى مرايا القرآن الكريم لأبى السعود العماوى ، دار إحياء التراث العربى ، جـ ٨ .

٣ - أساليب القصر فى القرآن الكريم: د. صباح عبيد دراز، ط١ الأمانة.

٤ - أساليب بلاغية: د. أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات ، الكويت ط ١ ، ١٩٨٠م .

٥ - أسباب النزول للنيسابورى ، ط ٢ م الحلبى مصر .

٦ - أسرار التكرار فى القرآن لابن نصر الكرمانى تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ دار الاعتصام .

٧ - أصوات اللغة : د. عبد الرحمن أيوب ، م الشباب ، القاهرة .

٨ - أضواء بلاغية على جزء الذاريات : د. عبد القادر حسين ، دار غريب للطباعة والنشر .

٩ - الإعجاز البيانى للقرآن : د. عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف .

١٠ - الإعجاز البيانى فى صيغ الألفاظ : د. محمد الأمين الخضرى ، مطبعة الحسين ط ١ .

١١ - إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربى .

١٢ - أنوار الربيع فى أنواع البديع للمدنى ، تحقيق شاكر هادى .

١٣ – الإيضاح للخطيب القزوينى تحقيق د. عبد الحميـد هنـداوى ، مؤسسة المختار ، القاهرة .

١٤ – البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق محمد أبـو الفـضل إبراهيم، دار المعرفة ، بيروت .

١٥ – بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: عبد المتعـال الـصعيدى، دار السعادة.

١٦ – بلاغة علم المعانى : د. أحمد النادى شعلة ، المحمد ط ١ .

١٧ – التحبير فى علم التفسير للسيوطى تحقيق د. فتحى عبـد القـادر فريد ، دار المنار .

١٨ – تفسير البغوى (معالم التنتزيل) دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٩ – تفسير البيضاوى ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، بيروت .

٢٠ – تفسير ابن كثير القرشى الدمشقى ، دار زهران .

٢١ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبـى ، ط دار الكتـب المـصرية ، القاهرة .

٢٢ – الجامع الكبير تحقيق د. مصطفى جواد وآخر ، بغداد ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م .

٢٣ – الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادى ، بغداد .

٢٤ – خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموى ، ١٣٠٤ هـ .

٢٥ – دراسات تحليلية للفصاحة والبلاغة والإسناد : د. الشحات محمد أبو ستيت م. ط (بدون) .

٢٦ – روح البيان للبروسوى ، المكتبة الإسلامية .

٢٧ – روح المعانى للألوسى البغدادى، دار إحياء التراث، بيروت ط٤.

٢٨ – شروح التلخيص للقزوينى وغيره ، عيسى الحلبى .

٢٩ – كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، تحقيق د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية .

٣٠ – الصورة البيانية : د. حفنى شرف ، نهضة مصر .

٣١ – الصورة الأدبية : د. مصطفى ناصف ، دار مصر .

٣٢ – فتح القدير للشوكانى ، دار غحياء التراث العربى ، بيروت .

٣٣ – الفوائد (المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيـان) لابـن قـيم الجوزية ، القاهرة ١٣٢٧هـ .

٣٤ – فى الدراسات القرآنية فى النقد الأدبى، تحقيق محمد خلـف الله محمد، محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، ط ٣ مصر .

٣٥ – القرآن والصورة البيانية : د. عبد القادر حسين ، دار المنار ، ط ١، ١٤١٢/١٩٩١ .

٣٦ – الكشاف للزمخشرى ، تحقيـق محمـد مرسـى عـامر دار المصحف ، م عبد الرحمن محمد .

٣٧ – لباب التأويل فى معانى التنزيل لعلاء الدين(الخـازن) جـ٦ ط الحلبى.

٣٨ – لسان العرب لابن منظور ، دار المعارف .

٣٩ – المثل السائر لابن الأثير ، جـ ٢ تحقيق محمد محيى الدين ، القاهرة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩ .

٤٠ – مجمع البيان للطبرسى ، مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان .

٤١ – المعانى الثابتة فى الأسلوب القرآنى : د. محى أحمد عامر ، ط الإسكندرية .

٤٢ – معترك الأقران للسيوطى ، تصحيح أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية .

٤٣ – المعجم الوسيط فى الإعراب ، صنفه د. نايف معروف ، دار النفائس ، بيروت .

٤٤ – مفتاح العلوم للسكاكى ، ط الحلبى .

٤٥ – من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم : د. محمد الأمين الخضرى ، م وهبة .

٤٦ – من بلاغة القرآن: د. أحمد بدوى ، ط ٣ ، نهضة مصر ١٩٥٠.

٤٧ – من بلاغة النظم العربى : د. عبد العزيز عرفة ، جـ ٢ .

٤٨ – من بلاغة النظم القرآنى : د. بسيونى عبد الفتاح فيود ، ط الحسين الإسلامية ط ١ .

٤٩ – النظم القرآنى فى كشاف الزمخشرى : د. درويش الجندى ، ط نهضة مصر .

٥٠ – النظم القرآنى ، د. رفعت إسماعيل السودانى ، التركى ، طنطا ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

٥١ – النكت للرمانى ، ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز .

٥٢ – نظرات فى البيان ، د. محمد عبد الرحمن الكردى ، ط ثانية ، م. بدون ١٩٨٣ .

الفهـــرس